

عباس محمد العفاد

الانسان

في القرآن الكريم

عباس محمد العقاد

الانسان

في القرآن الكريم

دار الإسلام
القاهرة

إنسان القرآن وإنسان القرن العشرين

تمهيد

انسان القرآن هو انسان القرن العشرين ، ولعل مكانه في هذا القرن اوفق وأوثق من أمكنته في كثير من القرون الماضية ، لأن القرون الماضية لم تلجئ الانسان الى البحث عن مكانه في الوجود كله ، وعن مكانه بين الخلائق الحية على هذه الأرض ، وبين أبناء نوعه وأبناء الجماعة التي يعيش فيها من ذلك النوع ، وبين كل نسبة ظاهرة أو خفية ينتمي اليها ، كما ألجأ الى ذلك كله هذا القرن العشرون .

قديمًا كان الحكماء يجعلون شعارهم في نصيحة الانسان : « اعرف نفسك ! »

وانها لنصيحة قد ترادف سؤالهم : من أنت ؟ أو سؤالهم : ما اسمك ؟ غير أن الانسان اذا أجابه فانما يجيبه باسم « باطني » يعرفه بملامح وجدانه وقسمات ضميره ، ولا يقف عند تعريفه بالاسم الذي يختار اعتسافا من بضعة حروف ..

وهو على أية حال سؤال الى « شخص » بعد شخص ، قد يسمعه عشرون في الحجرة الواحدة ويجيبون عليه عشرون جوابا متفرقات ..

وقديما كانوا يزعمون أن أبا الهول كان يلقي سؤاله ، فيهلك من لم يعرف جوابه . وكان سؤالا عن الحيوان الذي يمشى على أربع في الصباح ، وعلى اثنتين عند الظهر ، وعلى ثلاث عند المساء .. فكان سؤالهم لغزا من الغاز الأقدمين عن الانسان في أطوار عمره ، بين الطفل الذي يحب على أربع ، والفتى الذي يعتدل على قدمين ، والشيخ الذي يتحامل على عصاه ، وهو لغز شبيه بطفولة الانسان كله .. لا تبتعد المسافة بين جهله وعلمه ولا بين الهلاك فيه والنجاة ..

الا أن القرن العشرين جمع الأسئلة ، فلم يدع سؤالا عن نسبة من سبب الانسان لم يطلب جوابه ، على نذير بالهلاك لمن جهل الجواب ، وقد يكون هلاكاً للجسد والروح ..

ما مكانه من هذه السيارة الأرضية بين خلائقها الأحياء ؟ ..

ما مكانه من هذه السيارة الأرضية بين خلائقها الأحياء ؟ ..

ما مكانه بين أبناء نوعه البشرى ؟ وما مكانه بين كل جماعة من هذا النوع الواحد ، أو هذا النوع الذى يتألف من جملة أنواع يضمها عنوان « الانسان » ..

وهى أسئلة لا جواب لها فى غير « عقيدة دينية » تجمع للانسان صفوة عرفانه بدينه وصفوة ايمانه بغيها المجهول .. تجمع له زبدة الثقة بعقله ، وزبدة الثقة بالحياة .. حياته وحياة سائر الأحياء والأكوان ..

ان القرن العشرين كان حقيقاً أن يسمى بعصر « الايديولوجية » أو عصر الحياة « على مبدأ وعقيدة » ، لأنه كلما ألقى على الانسان سؤالا من أسئلته تلك لم يعفه من جوابه ، ولم يسلمه الى جزاء أهون من جزاء الحيرة عند السكوت عليه .. فان يكن سكوتاً عن الأجوبة جميعاً فهو الهلاك المحقق بالأبدان والعقول

وليس أكثر من « المبادئ والعقائد » التى نسمع عنها فى هذا القرن ، ويسمونها بالمذاهب و « الايديولوجيات »

ولكن أجوبة القرن العشرين ، مهما يكن من شأنها ، فهى أجوبة العصر الذى يحل المشكلة الزمنية ولا يتعدها الى مشكلة الأبد : مشكلة ما مضى وما أتى من الدهر وما يأتى الى غير نهاية ، ولا جواب لهذه المشكلة غير العقيدة الدينية التى تؤمن بها الانسانية ، فلا يغنى فيها ايمان فرد واحد بينه وبين ضميره ، أو جواب سؤال واحد لمن يقول : من أنت ؟ وماذا تعرف من نفسك بين عامة النفوس ؟ قصارك انك واحد منها بين ألوف الألوف ، عاشوا ويعيشون وسيعيشون ، ولا يسكتون عن تلك الأسئلة عامة ، ولا أمان لهم ولا لك ان سكتوا عليها .

هذه العقيدة الدينية توجد كما ينبغي أن توجد ، وانما الضلالة فيمن يريد على غير سوائها الذي تستقيم عليه ، ولا تستقيم على سواه

هذه العقيدة الدينية لا توجد اليوم لتنبذ غدا ، ولا توجد على الأيام للعارفين دون الجاهلين ، وللعاملين دون الحاملين ، ولمن يطلبون الخير للناس دون من يطلبون الخير لأنفسهم ، ولمن يعتقدون دراية ومحبة دون من يعتقدون تسليما ورغبة ، ولمن يسعون سعيهم الى العلم والايمان دون من يقعدون في مواطنهم منتظرين ، وقد يقعدون وهم يجهلون انهم قاعدون ، لا يعلمون ما الخير وما المنتظر ؟ ان علموا أنهم منتظرون ! ٠٠

هذه العقيدة بنية حية ، قوامها دهور وأمم ، ومعايش وآمال ، ونفوس خلقت ونفوس لم تخلق ، ونفوس يخلق لها تراثها قبل أن يصير اليها ، وسيليا جميعا أن تنهدى الى قبلة واحدة : تنظر اليها فتمضي قدما ، أو تفقدها في الأفق فهي أشلاء ممزقة ، كأنها أشلاء الجسم المشدود بين مفارق الطريق ٠٠

ان القرن العشرين ، منذ مطلع ، يعرض العقيدة بعد العقيدة على الانسان وعلى الانسانية ، ولا نعلم انه عرض عليها حتى اليوم قديما معادا أو جديدا مبتدعا هو أوفق من عقيدة القرآن ، وأوفق ما فيها أنها غنية عن الاختراع والامتحان ، وأنها على شرط العقيدة الدينية من بنية حية ، شملت ملايين الخلق وثبتت معهم وحدها في كل معترك زبون ، يوم خذلتهم كل قوة يعتصم بها الناس

ونحن ندعى في هذه الصفحات أن المنصف بين النصائح لا يستطيع أن ينصح لأهل القرآن بعقيدة في الانسان والانسانية أصح وأصلح من عقيدتهم التي يستوحونها من كتابهم ، وأن القرن العشرين سينتهي بما استحدثت من مبادئ ومذاهب و « ايدولوجيات » ولا ينتهي ما تعلمه أهل القرآن منه القرآن ٠٠

وان أهل هذا الكتاب يتدبرون القول ، فيتبعون أحسنه اذا تدبروا فلم يأخذوا بعقيدة من هذه العقائد التي يروجها دعايتها باسم المادية ، أو الفاشية ، أو العقلية ، ويريدون بها أن تكون على الزمن بديلا من العقائد الالهية ، ومن عقائد الغيب الذي يحسبونه معدوما أو موجودا كمعدوم

وقد استمع الناس الى المادية التاريخية ، فقالت لهم ان الانسان عملة « اقتصادية » في سوق الصناعة والتجارة ، تملو وتهبط في طبقاتها بمقياس العرض والطلب وصفقات الرواج والكساد . أما الانسانية فقد أنصتت الى المادية التاريخية ، فقالت لها انها شيء لا وجود له مع طوائفها التي تخلقها الاسعار والأجور ..

واستمع الناس الى الفاشية فقالت لهم ان الانسان واحد من عنصر سيد أو عنصر مسود ، وان أبناء الانسانية جميعا عبيد للعنصر السيد ، والعنصر السيد قبل ذلك عبد للسيد المختار ، بغير اختيار .

واستمع الناس الى « العقلية » فقال لهم قائل منها ان « انسانياتهم » كذلك شيء لا وجود له ووهم من أوهام الاذهان ، وان الشيء الموجود حقا هو الفرد الواحد ! .. وبرهان وجوده حقا أن يفعل ما استطاع من نفع أو أذى ، كلما أمن المغبة من سائر الأفراد والأحداث ! ..

وغير جديد ما استمعوه من أهل العقائد الالهية عن مكان هذا الانسان من الأرض والسماء ، ومكانه من اخوته في آدم وحواء

سمعوا انه روح وجسد ، ودنيا وآخرة ، ينجو شطره بمقدار ما يهلك شطره ، ويصح له الوجود بمقدار ما صح له من عقبي الغناء ..

وسمعوا انه انسانان .. انسان صحيح مقبول ، وانسان زائف مدخول .. صحيح مقبول كل من اجتباه مولاة على هواه ، وزائف مدخول كل من خلقه ونفاه ، ولعله لم يخلقه ودعاه اليه من دعاه

وسمعوا أن الانسان يولد بذنب غيره ، ويموت بذنب غيره ، ويبرأ من الذنب بكفارة غيره ، ويمضي بين النعمة واللعة بقدر من الأقدار ، لا نصيب له فيه من عصيان أو طاعة ، ومن اباة أو اختيار

وسمعو من القرآن غير ذلك ، فهم متدبرون يستمعون الى العقل كما
يسمعون الى الايمان اذا ائمنوا وثبتوا على اطمئنانهم اليه ..

الانسان في عقيدة القرآن هو الشقيقة المشتركة بين جميع ما خلق الله ..
يدين بعقله فيما رأى وسمع ، ويدين بوجوده فيما طواه الغيب ، فلا تدركه
الأبصار والأنساع -

و « الانسانية » من أسلافها الى أعقابها أسرة واحدة لها نسب واحد
واله واحد ، أفضلها من عمل حسنا واتقى سيئا ، وصدق النية فيما أحسنه
واتقاه ..



وفي الصفحات التالية كتابان في كتاب وجيز .. نبدأهما بعقيدة القرآن
فنعيد هذه الكلمات القلائل في صفحات ، ونتلوها بعرض مفيد لتاريخ البحث
عن نشأة الانسان في مذاهب الفكر والعلم أو مذاهب الحدس والخيال ،
ولا نزيد في سردها على الامام بما يصلح أن يكون محكا للنظر فيما يؤخذ
بالبرهان أو يؤخذ بالايمان عن حقيقة الانسان ..

الكتاب الأول

الإنسان في القرآن

المخلوق المسئول

ارتفع القرآن بالدين من عقائد الكهانة والوساطة وألغاز المحاريب الى عقائد الرشد والهداية .. لا جرم كان « المخلوق المسئول » صفوة جميع الصفات التي ذكرها القرآن عن الانسان ، اما خاصة بالتكليف أو عامة في معارض الحمد والذم من طباعه وفعاله ..

ولقد ذكر الانسان في القرآن بغاية الحمد وغاية الذم في الآيات المتعددة وفي الآية الواحدة . فلا يعنى ذلك انه يحمد ويذم في آن واحد ، وانما معناه انه أهل للكمال والنقص بما فطر عليه من استعداد لكل منهما ، فهو أهل للخير والشر ، لأنه أهل للتكليف

والانسان مسئول عن عمله - فردا وجماعة - لا يؤخذ واحد بوزر واحد ، ولا أمة بوزر أمة :

* * *

« كل امرئ بما كسب رهين »

« سورة الطور »

* * *

« تلك أمة قد خلت ، لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ، ولا تسألون عنها

كانوا يعملون »

« سورة البقرة »

* * *

أما مناط المسئولية في القرآن ، فهو جامع لكل ركن من أركانها يتغلغل اليه فقه الباحثين عن حكمة التشريع الدينى أو التشريع فى الموضوع ..

فهى بنصوص الكتاب قائمة على أركانها المجملة : تبليغ ، وعلم ،

وعمل ..

فلا تحق التبعة على أحد لم تبلغه الدعوة في مسائل الغيب ومسائل
الإيمان :

« ولكل أمة رسول ، فإذا جاء رسولهم قضى بينهم بالقسط وهم
لا يظلمون »

« سورة يونس »

* * *

« وإن من أمة إلا خلا فيها نذير »

« سورة فاطر »

* * *

« وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا »

« سورة الاسراء »

* * *

أما العلم فإن أول آية في الكتاب تلقاها صاحب الدعوة الإسلامية ،
كانت أمراً بالقراءة وتنويعها بعلم الله وعلم الإنسان :

* * *

« اقرأ وربك الأكرم ، الذي علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم »

« سورة الملئ »

* * *

وأول فاتحة في خلق الإنسان ، كانت فاتحة العلم الذي تعلمه آدم
وامتاز به على سائر المخلوقات :

* * *

« وعلم آدم الأسماء كلها ، ثم عرضهم على الملائكة فقال : انبئوني
بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين » قالوا : سبحانك ، لا علم لنا الا ما علمتنا
انك انت العزيز الحكيم »

« سورة البقرة -

وأما العمل فهو مشروط في القرآن بالتكليف الذي نسعه طاقة المكلف :
وبالسعي الذي يسعاه لربه ولنفسه :

« لا يكلف الله نفسا الا وسعها »

« سورة البقرة -

« وأن ليس للإنسان الا ما سعى »

« سورة النجم -

« فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره »

« سورة الزلزلة -

ورسل البلاغ هم أول المكلفين بالعلم والعمل ، أمهم جميعا أمة واحدة
هي « الأمة الانسانية » والهم جميعا اله واحد هو رب العالمين :

« يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا اني بما تعملون عليم »
« وان هذه أمكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون »

« سورة المؤمنون -

وفيما ذكر فيه الانسان من آيات الكتاب وصف له ، وهو في الذروة من الكمال المقدور له بما استعد له من التكليف ، ووصف له وهو في الدرك الأسفل من الحطة التي ينحدر اليها بهذا الاستعداد ، وكل هذه الآيات توسع مفصل فيما ورد من نصوص الأمر والنهي ، والعظة والتذكير ، والثواب والعقاب ..

فالانسان أكرم الخلائق بهذا الاستعداد المتفرد بين خلائق السماء والأرض ، من ذى حياة أو غير ذى حياة :

* * *

« ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا »

« سورة الاسراء »

* * *

« لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم »

« سورة التين »

« سخر لكم ما في السموات »

« سورة لقمان »

« سخر لكم ما في الأرض »

« سورة الحج »

* * *

ولكنه ينقرد بين الخلائق بمساوئ لا يوصف بها غيره ، لأن السيئة والحسنة - على السواء - لا يوصف بها مخلوق غير مسئول ..

فهذا المخلوق المسئول يوصف دون غيره من الخلائق بالكفر والظلم والطغيان والخسران والفجور والكنود ، لأنه دون غيره أهل للإيمان والعدل والرجحان والعفاف

« ان الانسان لظالم كفار »

« سورة ابراهيم »

* * *

« ان الانسان ليظغى أن رآه استغنى »

« سورة العلق »

* * *

« ان الانسان لفي خسر »

« سورة العصر »

* * *

« بل يريد الانسان ليفجّر أمامه »

« سورة القيامة »

* * *

« ان الانسان لربه لكنود »

« سورة العاديات »

* * *

وقد يذكر بالضدين فى الآية الواحدة كما جاء فى قوله تعالى :

« لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم • ثم رددناه أسفل سافلين »

* * *

ونقرأ فى بعض التفاسير أن أسفل سافلين هو أذل العمر ، وهو يقتضى أن يكون « أحسن تقويم » هو تقويم الطفل الوليد

ونقرأ فى غيرها أن أسفل سافلين هى الجحيم ، فيكون لازماً أن الجنة هى المقصودة بأحسن تقويم

٣ - الانسان فى القرآن الكريم

وفهم الكثيرون أن التقويم الحسن هو الصورة الظاهرة لاعتماد قوام الإنسان ، وليس جمال الخلق وعده مرتبطا باعتماد الفروم ، بل ترتبط به القدرة على العمل والإرادة ، وهي قدرة لم تخف علاقتها بصورته الظاهرة قبل عصر المسيح والملم برطائف الاعضاء الذي أثبت العلاقة الضرورية بين اعتماد النخاع وجهاز المنطق في الرأس والعنق وعمود الظهر وسائر البدن ، ثم زاد الناس علما بما يعنيه التقويم الحسن من فضائل العقل والجسد ومن مزايا الفطنة والجمال

وانما المعنى الموافق لسائر معاني الآيات ، ان الجمع بين النقيضين في الإنسان ينصرف الى وصف واحد ، وهو وصف الاستعداد الذي يجعله أهلا للترقى الى أحسن تقويم وأهلا للتدهور الى أسفل سافلين

على ان الآيات التي قصر فيها القول على خلق جسد الإنسان . لم نحل مما يوحى الى المخلوق المسئول ان أطوار خلقه السوى اعداد لما هو أشرف من حياته الحيوانية ، وبرهان من براهين التبليغ برسالة الغيب ، عسى أن ينظر في الخلق فيرى فيه آثار الخالق الذي لا تدركه الأبصار والأسماع :

* * *

« ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقة ، فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاما ، فكسونا العظام لحما ، ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين » . سورة المؤمنون .

* * *

« ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم . الذي أحسن كل شيء خلقه ، وبدأ خلق الإنسان من طين . ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين . ثم سواه ونفخ فيه من روحه »

سورة المجدة .

* * *

« ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون »

« سورة الروم »

* * *

« سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون »

« سورة يس »

* * *

ولا يسأل الانسان عما يجهل ، ولكنه يسأل عما علم وعما وسعه أن يعلم ، وما من شيء في عالم الغيب أو عالم الشهادة هو محجوب كله عن علم الانسان ، فما وسعه من علم فهو محاسب عليه

الكائن المكلف

القرآن كتاب تبليغ وأقناع وتبيين ، وقوام هذه الفصيلة فيه هذا التوافق التام بين أركانه وأحكامه ، وبين عقائده وعباداته ، وبين حجته ومقصده ، فكل ركن من أركانه يتنزل فيه بأقداره ، ويوافق في تفصيله سائر أركانه التي تتم به أو يتم بها على قدر مبين

ليس أتم ولا أعجب من التوافق بين تمييز الإنسان بالتكليف ، وبين خطاب العقل في هذا الكتاب المبين ، بكل وصف من أوصاف العقل ، وكل وظيفة من وظائفه في الحياة الإنسانية

وخليق بالمسلم ، وبكل دارس للأديان ، أن يتنبه الى هذه الفضيلة التي تحسب لأول وهلة كأنها شيء من الواقع البديهي لا يحتاج الى التنبيه ، ولكن حاجته الى التنبيه انما تظهر عند المقارنة بين القرآن وبين جملة من الكتب الدينية الكبرى ، في فضيلة التبليغ المقصود ، ونعني به التبليغ الذي يراد ويتناسب فيه البيان على حسب الأحكام والأركان

في كثير من الأديان أركان تقوم عليها دعائم الدين كله ويرتبط بها نجاة الإنسان من الهلاك أو ضياعه في هاوية المقت واللعنة ، ثم تبحت عن هذه الأركان في كتاب الدين فاذا هي معروضة فيه بين السطور ، يحيلها المفسرون الى حكم القرينة ، ويجوز لمن شاء أن يحسبها من مصادفات القول يتساوى السكوت عنها والنص عليها ..

مثل هذا لا يعرف في حكم من أحكام الكتاب المبين ولا في ركن من أركانه ، بل المعروف فيه على نقيض ذلك أن تبليغه على قدر فريضته وأن التوافق فيه على إتمه بين الأركان التي تتلازم وتتكامل ، عن بيان مقدور لا محل فيه لفرض المصادفة ، بل لا محل فيه لتجاهل القصد مع رسالة من رسائل التبليغ ..

مكان الانسان فى القرآن الكريم هو أشرف مكان له فى ميزان العقيدة .
وفى ميزان الفكر وفى ميزان الخليفة الذى توزن به طبائع الكائن بين عامة
الكائنات . .

هو الكائن المكلف . .

هو كائن أصوب فى التعريف من فول القائلين « الكائن الناطق »
وأشرف فى التقدير . .

هو كائن أصوب فى التعريف من الملك الهابط ومن الحيوان الصاعد ،
وأشرف فى التقدير من هذا وذاك

ليس الكائن الناطق بشيء ، ان لم يكن هذا النطق أهلا لأمانة التكليف .

وليس الملك الهابط منزلة تهدى الى طريق الصعود أو طريق الهبوط .
رئيس الحيوان الصاعد بمنزلة الفصل بين ما كان عليه وما صار اليه .
ولا بمنزلة التمييز بين حال وحال فى طريق الارتقاء

انما الكائن المكلف شيء محدود بين الحلائق بكل حد من حدود العقيدة .
أو العلم أو الحكمة ، وحادث من حوادث الفتح فى الخليفة موضوع فى موضعه
المكين بالقياس الى كل ما عداه . .

أى شيء أعجب من هذه الخاصة المحكمة ينفرد بها القرآن بين تعريفات
الفلسفة وتعريفات الدعوة الدينية . .

انها عجيبة لا يدفع عجبها الا أنها تجرى على سنتها من تبليغ الكتاب
المبين . .

انها عجيبة لم تأت من مصادفات التضمن والتخمين ، لأن الكتاب الذى
ميز الانسان بخاصة التكليف ، هو الكتاب الذى امتلأ بخطاب « العقل » بكل
ملكة من ملكاته ، وكل وظيفة عرفها له العقلاء والمتعقلون ، قبل أن يصبح
العقل « درسا » يتقصاه الدارسون كنها وعملا ، وأثرا فى داخله وفيما خرج
عنه ، وفيما يصدر منه وما يثول اليه . .

العقل وازع « يعقل » صاحبه عما يأباه له التكليف ..

العقل فهم وفكر يتقلب فى وجوه الأشياء وفى بواطن الأمور ..

العقل رشد يميز بين الهداية والضلال ..

العقل روية وتدبير ..

العقل بصيرة تنفذ وراء الأبصار ..

والعقل ذكرى تأخذ من الماضى للحاضر ، وتجمع العبرة مما كان لما

يكون ، وتحفظ وتعى وتبدى وتعيد ..

والعقل بكل هذه المعانى موصول بكل حجة من حجج التكليف ، وكل

أمر بمعروف ، وكل نهى عن محظور ..

أفلا يعقلون ؟ أفلا يتفكرون ؟ أفلا يبصرون ؟ أفلا يندبرون ؟ أليس منكم

رجل رشيد ؟ أفلا تتذكرون ؟

ان هذا العقل بكل عمل من أعماله التى يناط بها التكليف حجة على

المكلفين فيما يعنيه من أمر الأرض والسماء ، ومن أمر أنفسهم ، ومن أمر

خالقهم ، وخالق الأرض والسماء ، لأنهم :

* * *

« ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ، ربنا ما خلقت هذا باطلا »

« سورة آل عمران »

* * *

« أولم يتفكروا فى أنفسهم ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما

الا بالحق وأجل مسمى »

« سورة الروم »

* * *

وقد ننقل تكاليف القرآن جميعا ، وننقل عظامه جميعا اذا أردنا الشواهد على هذا التوافق الموصول بين تمييز الانسان بالتكليف في القرآن وبين خطابه للعقل والفكر ، ونذكره بالرشد والبصر وسائر ملكات التمييز في مصطلحات الزوازل والأواخر ، ولكنها شواهد حاصرة في ذهن كل فاضل لهذا الكتاب ، وكل قادر على المقابلة بينه وبين غيره من كتب الأديان ، ولو لم يعبر منها غير صفحات معدودات •

ومن تمام التوافق بين أركان التبليغ في هذا الكتاب ان الأمر فيه يجرى على هذه السنة ، فيما أتى به فريدا غير مسبوق عن رسالة النبوة ••

انها الرسالة التي لم تعرف قط في التاريخ البشرى قبل تمييز الانسان بحاصة التكليف واعداده لخطاب العقل وبيانات الاقناع ••

كانت الأمم - قبل البعثة المحمدية - تفهم أن النبوة استطلاع للغيب وكشف للأسرار والمخبات ، يستعان بها على رد المضاع وإعادة المسروق أو الدلالة عليه ، ويستخبرونها عن طوابع الحير والشر ومقادير السعور والنحوس ، وكان من تلك الأمم من يحسب أن النبوة وساطة بين المعبود وعباده للتشفع اليه بالهدايا والقربان ، وكانوا يطلبون وساطة الأنبياء دفعا للنوازل التي يستحقونها وتنزل بهم ، لأنها قضاء مبرم يتوقعه الصالحون العارفون ، ويسألون المعبود في دفعه قبل نزوله •• فجاءت نبوءة الاسلام بجديد باق لم تسبق له سابقة في الدعوات الدينية ، بل لا حاجة بعده الى جديد ولا استطاعة للتجديد ، لأنه يخاطب في الانسان صفته الباقية وخاصته الملازمة ، وهي خاصة النفس الناطقة بين عامة الأحياء أو خاصة الضمير المسئول الذي يحمل تبعته ولا تغنيه عنها شفاعاة ولا كفارة من سواه ••

فهى نبوة فهم وهداية ، وليست نبوة استطلاع وتنجيم •• وهى نبوة هداية بالتأمل والنظر والتفكير ، وليست نبوة خوارق وأهوال تروع البصر والبصيرة وتروع الضمائر بالتخويف والارهاب حيث يعيها قبول الاقناع ••

انها نبوة مبشرة منذرة لا تملك لهم نفعا ولا ضرا ، ولا تعمل لهم عملا

غير ما يعملونه لأنفسهم بمشيتهم اذا اهدوا بهداية العقل المتدبر والضمير
السليم :

* * *

« قل لا املك لنفسي نفعا ولا ضرا الا ما شاء الله . ولو كنت أعلم الغيب
لاستكثر من الخير وما مسنى السوء ان انا الا نذير وبشير فقوم يؤمنون »
« سورة الاعراف »

* * *

نعم . . . ولا اغراء ولا مساومة على قربان او على جزاء بين الأخذ والعطاء :

* * *

« قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم انى
ملك . ان أتبع الا ما يوحى الى . قل هل يستوى الأعمى والبصير افلا
تتفكرون »
« سورة الانعام »

* * *

وقد جاءت سمعة المعجزة ميسرة لصاحب هذه النبوة ، يوم مات ابنه
ابراهيم وكسفت الشمس ، فظن الناس أنها كسفت لموته ، وأبى النبى
الصادق أن يسكت عليها ، فتكلم ليعلمهم أن الشمس والقمر آيتان لا تخسفان
لموت أحد ولا لحياته

وقد بين للناس أن المعجزة لا تجدى من يكابر العقل ويأبى الاصغاء الى
بينات الاقناع :

* * *

« ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون • لقالوا انهم
سمكوت أبصارنا بل نعين قوم مسحورون »

« سورة الحجر »

* * *

ولقد تقدمت نبوة الاسلام دعوات كثيرة ، من أكبر الدعوات شأنها في
تاريخ العقيدة ، ولكنك لو عرضتها على مؤرخ ينظر في أدوار التاريخ لم
يستطع أن يختتم دور النبوة في تاريخ الانسانية بدعوة من تلك الدعوات على
جلالة شأنها ، لأنها جميعا قد بدأت وانتهت قبل أن توجد في أذهان الناس
فكرة الانسانية العامة وفكرة الانسان المسئول المحاسب على أمانة العقل
والضمير ••

فنبوات بنى اسرائيل لم تزل مقصورة على سلالة بشرية واحدة ، تنزل
بحاضرها ووعود مستقبلها عن سائر الأمم ، وعيسى عليه السلام قد نقل
الرسالة نقلة واسعة حين أدخل أبناء ابراهيم بالروح في عداد أبنائه بالجسد ،
ولكنه أدى رسالته وبقي الانسان بعده محتاجا أشد الحاجة الى رسالة تخلصه
من الاعتماد على غيره في النجاة من أوزاره والتكفير عن سيئاته والنهوض
بتبعات صلاحه وتربية روحه ، ولن تفرغ أمانة النبوة في تاريخ الانسانية
قبل أن يوجد الانسان الذى يخاطب بالعقل ويحاسب بحسابه ،
ويحمل تبعاته على عاتقه ويشترك على سواء بينه وبين اخوانه من البشر في
عبادة آله واحد ، هو رب العالمين ، وليس بالرب الذى يخلق نعمته لسلالة
واحدة من خلقه ، أو لعشيرة واحدة يدركها الخلاص بفضل لم تفضله ،
وحساب لم تضعه فى موازينها بعمل يمينها ••

فلما جاءت نبوة التكليف ، صح فى حكم العقل أن تختتم بها النبوة
لأنها حاضرة فى كل وقت يحضره الانسان العاقل المسئول ، وتحضره
آيات الله ليقوم يعقلون

* * *

« ان في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي
تجرى في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به
الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر
بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون »

« سورة البقرة »

* * *

ان قيام النبوة على اقناع العقل المستقل بآيات الكون ، قد اختتم
سلطان الأحبار والقادة كما اختتم سلطان النبوات بالمعجزات وخوارق
العادات . فلا يعذر الاسلام انسانا يعطل عقله ليطيع السادة المستكبرين أو
ليطيع الأحبار المتسلطين بسلطان المال والدين :

* * *

« قالوا فيم كنتم • قالوا كنا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن
أرض الله واسعة فتهاجروا فيها »

« سورة النمل »

* * *

« قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صمدناكم عن الهدى
بعد اذ جاءكم بل كنتم مجرمين »

« سورة سبأ »

* * *

« يا أيها الذين آمنوا ان كثيرا من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال
الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله »

« سورة التوبة »

* * *

« اتخذوا أجبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله »

« سورة التوبة »

* * *

فلا يسقط التكليف عن العاقل أن يطيع المتحكمين بطغيان الحكم أو طغيان الكهانة ، ولا يمنعه التكليف أن يسأل من يعلم ان كان لا يعلم ، لأن طلب العلم يحقق واجب التكليف ولا يعطله أو يلغيه ، ويوجب على المتعلم أن يتبين من يسأل وهو مسئول عما يفعل :

* * *

« وما أرسلنا من قبلك الا رجالا نوحى اليهم ، فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون »

« سورة النحل »

* * *

١

فاذا سمي ختام النبوة باسمه الحق في تاريخ الانسان ، فاسمه الحق انه هو فاتحة عهد الرشيد في حياة الانسانية الخالدة ، قبل عهد الرشيد الذي أخرجته القرون الوسطى بسبعة قرون

٢

ومن عبث الجهالة أن يفهم هذا الميقات الجليل فهم العقول الصغار ، فلا يعطى حقه من الفهم ولا حقه من التقديس ، وتسمع من يفسره في « عصر العلم » فلا يفهم منه الا أنه « حكر » الاثرة يغلقه النبي على من بعده ، ويسينغ هذا السخف وهو صورة لا تقبل التصور عن هذا النبي ، كيفما تصوره الناظر اليه على حقيقته أو على دعواه . . فهذا « الحكر » صنيع لا يصنعه نبي أمر أتباعه بتصديق الأنبياء من قبله ، وجهد جهده لينفى سلطان الغيب عن نفسه ، ويطرد سمعة المعجزة عن دعوته ، وهي طيعة منقادة بين يديه . . فان جاز في حقه هذا « الحكر » المقتصب ، فهل يجوز في حقه أن يغتصبه من الله وأن يأمن تكذيب الله اياه ، وقدرته على اخلاف دعواه ؟

ان اختتام النبوة لا يفهم هذا الفهم الصغير في عقل يطيق أن يدرك
 الواقع من أمر دعوة عظيمة ولا شأن عظيم • ولو كان احتكار النبوة باع
 النبي الى دعواه لما دخل فيها ذهاب سلطان الأجر والولاية ، ولا دخل فيها
 ادعاء النبوة أصلا وهي لا تخول النبي ، ولا مدعى النبوة أن يحجب المغيب
 المجهول من مشيئة الله

ولكن الايمان بالعقل المسئول ، هو الباعث اليين الذي يفسر ما لم يفسره
 صغار العقول من اختتام النبوة واختتام الكهانة واختتام سلطان الحاكمين
 على الضمير ، وان انتظامه كله على هذه السنة المتفكة ليجو الآية الناطقة
 : بإرادة الله

روح وجسد

عقيدة الروح احدى العقائد الغيبية فى القرآن ٠٠ والعقائد الغيبية أساس عميق من أسس التدين ، تقوم عليه كل ديانة يطمئن اليها ضمير الانسان ، ولكن الفضيلة الأولى فى عقائد القرآن الغيبية انها لا تعطل عقول المؤمنين بها ، ولا تبطل التكليف بخطاب العقل المسئول ، وهو يؤدى حق التمييز وحق الايمان والاسلام : اسلام الأمر كله الى الخالق المعبود ٠٠

وعقيدة الروح احدى العقائد « الغيبية » التى نلمس فيها هذه الفضيلة ، كأنها من حقائق الحس وان وجب على العقل الانسانى أن يؤمن بعلمه القليل فيها ، وأن يسلم تسليم الايمان بأنها من علم الله ٠٠

ذلك بأن الايمان بالروح ، لم يفرض على العقل البشرى فى القرآن الكريم نقيضة من النقائص التى تشطره بين ضدين متدابرين ، ولم يفصم النفس البشرية بفاصم من الحيرة بين الخلقين : خلقة الانسان روحا مجهول القوام ، وجسدا معروف المطالب والغايات ، محسوس الذات والآلام

فالروح والجسد فى القرآن الكريم ملاك الذات الانسانية ، تتم بهما الحياة ولا تنكر أحدهما فى سبيل الآخر ، فلا يجوز للمؤمن بالكتاب أن يبخس للجسد حقا ليوفى حقوق الروح ، ولا يجوز له أن يبخس للروح حقا ليوفى حقوق الجسد ، ولا يحمد منه الاسراف فى مرضاة هذا ولا مرضاة ذاك ٠٠ وعلى الله قصد السبيل

والقرآن الكريم ينهى عن تحريم المباح كما ينهى عن اباحة المحرم :

* * *

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرَمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ • وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمْ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ »

« سورة المائدة »

* * *

والقرآن الكريم يعلم المؤمن به أن يكسب الطيبات من صنع يده ، وأن ينفق منها غير مسرف في انفاقه ، وأن ينعم بالطيبات من ثمرات الأرض وخيراتها لأنها نعمة مشكورة لا يحل له أن يجتنبها :

* * *

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفَقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ »

« سورة البقرة »

* * *

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ »

« سورة البقرة »

* * *

ومن تمكين الإنسان في الأرض أن يبتغي فيها معيشته ويسيم فيها مطيته ، وأن يتخذ منها زينته ، ويتم بها عدته ، ولا يزهّد في شيء من خيراتها يخرج نفسه أو تخرجه له الأرض من فضل ربه :

* * *

« وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقْ مَا لَا تَعْلَمُونَ • وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهْدَاكُمْ أَجْمَعِينَ • هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ

السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسميون • ينبت لكم به الزرع
والزيتون والنخيل والاعناب ومن كل الثمرات ، ان في ذلك لآية لقوم
يتفكرون »

سورة النحل ،

* * *

بل الزينة للعبادة واجبة كوجوبها لمقاصد الدنيا ومطالب المعيشة ،
والخطاب في هذا موجه الى بنى آدم لأنه نعمة مرضية من نعم الانسانية ، ومن
تميز الله لهذا الانسان على سائر الحيوان :

* * *

« يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا
انه لا يحب المرففين • قل من حرم زينة الله التي اخرج لعباده والطيبات من
الرزق »

سورة الاعراف ،

* * *

« ولقد مكناكم فى الأرض وجعلنا لكم فيها معاش »

سورة الاعراف ،

* * *

فهو من تمكين بنى آدم بين خلائق الله ، وهو من حق المعيشة الأرضية
وواجب الحياة الدنيوية ، لا تناقض فيه بين روح وجسد ، ولا تنازع فيه بين
دنيا وآخرة ، ولا فصام فيه للذات الانسانية يحار فيه العقل وتتمزق به
أوصال الضمير

وقوامه فى خطاب التبليغ للانسان من بنى آدم كافة :

* * *

« وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا »

« سورة القصص »

* * *

فليس السعى في سبيل الدنيا ضلالا عن سبيل الآخرة ، وليس في القرآن فصام بين روح وجسد ، أو انشقاق بين عقل ومادة ، أو انقطاع بين سماء وأرض ، أو شتات في العقيدة يوزع « الذات الانسانية » بسين ظاهر وباطن وبين غيب وشهادة ، بل هي العقيدة على هداية واحدة تحسن بالروح كما تحسن بالجسد ، في غير اسراف ولا جور عن السبيل :

* * *

« ومنها جائز • ولو شاء لهداكم أجمعين »

* * *

ان القرآن الكريم بهذا الالهام الصادق ، ينقذ العقل من نقائص التفكير ، ولا ينحيه من نقائص التكليف وحسب ، أو من نقائص الحيرة بين العالمين في حقائق الدين ، ولا مزيد

فمن ضلال التفكير قديما ، أنه ساق كبار العقول الى ذلك القاصل المعتسف بين عالم النور والفلك الأعلى ، وعالم التراب والأرض السفلى ..

كل ما فوق القمر فهو صفاء وطهارة ، وكل ما دون القمر فهو كدر ودنس ، وكل ما هنالك فهو جوهر خالص ، وكل ما دونه فهو عرض مشوب أو أعراض لا يصفو لها وجود ولو أشرق عليها عالم النور

وعلى مثل هذا « التفاضل » المسلم بين النور والتراب ، وبين الجوهر والعرض ، قد دار كل ما دار قديما وحديثا - في الدين والعلم - من عزل أصيل بين الصفاء والكدر ، وبين العقل والمادة ، وبين الروح والجسد ، وبين النقيضين من النور والظلام ..

ان هذا الاعتساف في التفريق بين هذين الوجودين المتقابلين ، قد عطل العقل زمنا طويلا عن فهم حقائق الحس ، كما عطله ولا يزال يعطله عن فهم حقائق التكليف وحقائق الأديان

ان العقل ليعلم اليوم ان ذرات الترات وذرات الضياء ، من معدن واحد ، وان الحجر اليابس يتفتت فاذا هو شعاع ، وان الشعاع المطلق ينعقد ويتقابل فاذا هو حجر ، وان الفيصل بين ضياء الفلك وضياء العقل قائم لا شك فيه ، ولكن لا شك كذلك في خفاء هذا الأمر على العلم كخفائه على الايمان . . .

فماذا يقول العالمون بالذرة من « المؤمنين » بالمادة دون الروح ؟
ماذا يقول عن عقل « الدماغ » كيف يرى ما لا تراه العين بشعاع الضياء ؟

سيقول علما ما قال به قارئ الكتاب ايمانا حين قيل له عن الروح
فسمع وصدق وقلبه مطمئن بالايمان :

* * *

« قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم الا قليلا »

« سورة الاسراء »

الـنـفـس

تكلم حكماء اليونان عن العقل والروح والنفس بمعانيها التي تنسب الى
الكون ..

وتكلموا عن العقل والروح والنفس بمعانيها التي تنسب الى الانسان ..
ورتبوها على حسب صفاتها وعلو جوهرها ، فكان العقل عندهم أولها
وأشرفها ، لأن جوهر العقل المطلق هو الله جل شأنه ، والعقل الالهي هو
العقل الفعال Poietikos المنزلة عن المادة والهيولى ، وعنه يصدر العقل
الانساني أو العقل المنفعل Pathetikos

ثم تأتي الروح والنفس بعد ذلك في الصفاء والشرف .. فعندهم أن
الروح أقرب الى عنصر النور ، وأن النفس أقرب الى عنصر الهواء والتراب ،
ويقول أتباع أفلاطون ان العقل الالهي فيض منعم صدر عنه « النفس »
ومنه صدر ما دونها من الموجودات على ترتيب شرفها وصفاتها ، وهم يذكرون
النفس بصيغة المذكر ويتابعهم في ذلك من كتبوا بالعربية وتابعوهم في
مذاهبهم الصوفية ..

والروح أرفع من النفس في درجات الوجود ودرجات الحياة عند أكثر
حكماء اليونان ، فمنهم من ينسب النفس الى الكائنات العضوية جميعا ومنها
كل نبات ينمو ويلد ويوصف ببعض صفات الأحياء ، فمعنى النفس عندهم
على هذه الصفة مرادف لمعنى « الحركة الحيوية » أو معنى القوة التي تجعل
أعضاء الجسم الحى مخالفة للأجسام المادية في قابلية النمو والتوليد ، ونصيبها
من الازادة أكبر من نصيب الجأاد وأصغر من نصيب الروح ، فانها لا تملك
الانتقال من المكان الذي هي فيه ..

فالعقل والروح والنفس قوى حية على هذا الترتيب من الشرف
والصفاء ، والانسان له نصيب من العقل .. ولكنه دون العقل الفعال في

جوهره وتنزهه عن المادة والهيولى ، وله روح يعلو به على سائر الموجودات ،
ونفس قد يقترب بها من الكائنات التى تنمو وتلد وتريد على درجات ..

ان هذا الاختلاف بين هذه القوى فى مصطلح الحكمة اليونانية ، وفى لغة
الكتاب المبين ، يقاس من ناحية الى كثافة المادة ويقاس من ناحية الى المثل
للأعلى ، وهو الله

وقد يقاس الكمال فى مصطلح الحكمة اليونانية الى الجوهر بمقدار
ارتفاعه ، والى المادة أو الهيولى بمقدار هبوطه ..

ولكن كمال هذه القوى فى لغة القرآن مقيس الى كمال الله جل شأنه ..
فأرفعها وأشرفها ما كان أقربها الى الصفات الالهية ، وأدناها وأخسها ما كان
أبعدها من تلك الصفات ..

ومن المقابلة بين هذه القوى ، كما ذكرت فى الكتاب المبين ، قد نتبين
أن « الروح » هو أقربها الى الحياة الباقية وأخفاها عن المدارك الحسية ، وأنه
الجانب الذى استأثر الله بعلمه واحتجب عن أنبيائه ، لأنه سر الوجود
المطلق .. لا قدرة للعقل الانسانى المحدود على الاحاطة به ووعيهه الا بما
يناسبه من الاشارة والتقريب :

* * *

« ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم الا
قليلا »

* * *

أما العقل والنفس فى بيان القرآن الكريم ، فالراجع أن النفس أقربهما
الى الطبع أو القوة الحيوية التى تشمل الارادة كما تشمل الغريزة ، وتعمل
واعية كما تعمل غير واعية ، وتأتى فى مواضعها من الآيات الكثيرة مرادفة
للقوة التى يدركها النوم ، والقوة التى يزهقها القتل ، والقسوة التى تحس
النعمة والعذاب وتلهم الفجور والتقوى ، وتحاسب على ما تعمل من حسنة

وسيلة ٠٠ فهي القوة التي تعمل وتريد ، مهتدية بهدى العقل أو منقادة لنوازع
الطبع والهوى ، وتوضع لها الموازين بالقسط يوم القيامة ٠٠

* * *

« الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت فى منامها »

« سورة الزمر »

* * *

« وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار »

« سورة الأنعام »

* * *

واذا ذكر قتل النفس « فى القرآن » ، فانما هو قتل الانسان أو الناس
على حسب الخطاب الى الفرد أو الجماعة :

* * *

« من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس
جميعا »

« سورة المائدة »

* * *

« ولا تقتلوا أنفسكم ان الله كان بكم رحيما »

« سورة النساء »

* * *

« ثم انتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقا منكم من ديارهم »

« سورة البقرة »

* * *

ولكن الانسان اعم من النفس لأنه مسئول أن ينهاها :

* * *

« وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى • فإن الجنة هي المأوى »

« سورة النازعات »

فجملته هذه القوى من النفس والعقل والروح هي « الذات الانسانية » تدل كل قوة منها على « الذات الانسانية » في حالة من حالاتها ، ولا تتعدد « الذات الانسانية » بأية صورة من صور التعدد لأنها ذات نفس أو ذات روح أو ذات عقل ، فانما هي انسان واحد في جميع هذه الحالات ، وهي تعبيرات عنها في جميع اللغات تقضى بها ضرورة الكلام عن كل قوة خفية تدرك أعمالها ولا تدرك مصادرها ، وعلى هذا النحو تكلم الناس عن ملكات العقل والنفس والروح ، وعما ينسب اليهما من وعى باطن ووعى ظاهر ، ومن ضمير ووجدان وخيال وحافضة وبديهة وروية الى غير هذه الأسماء التي تتعدد للتمييز بين الأعمال ، وان لم تتعدد في مصادرها المعلوم أو المجهول ••

وقد ذكرت النفس في القرآن بجميع قواها التي يدرسها اليوم علماء النفس المتخصصون لهذه الدراسات في موضوعاتها الحديثة ••

فقوة الدوافع الغريزية تقابل النفس « الأمانة بالسوء » :

* * *

« وما أبرئ نفسي ان النفس لأمانة بالسوء »

« سورة يوسف »

* * *

وقوة النفس الواعية تقابل النفس الملهمة :

* * *

« ونفس وما سواها • فآلهمها فجورها وتقواها • قد أفلح من زكاها ،
وقد خاب من دساها »

« سورة الشمس »

* * *

وقوة الضمير تقابل النفس اللوامة ، وهى النفس التى يقع منها الحساب
كما يقع عليها ، وجاء ذكرها من أجل ذلك مقرونا بيوم القيامة :

* * *

« لا أقسم بيوم القيامة ولا أقسم بالنفس اللوامة »

« سورة القيامة »

* * *

ثم ذكرت موصوفة بالابصار والعلم بمواقع الاعذار :

* * *

« بل الانسان على نفسه بصيرة • ولو ألقى معاذيره »

« سورة القيامة »

* * *

وقوة الايمان والثقة بالغيب تقابل النفس المطمئنة :

* * *

« يا أيها النفس المطمئنة • ارجعى الى ربك راضية مرضية »

« سورة الفجر »

* * *

وفي كل موضع من هذه المواضع ، تذكر النفس الانسانية بعامة هذه القوى . . فتجمعها خاصة واحدة هي خاصة الانسان في القرآن ، وهما كما نقدم خاصة الكائن المكلف المسئول

* * *

« كل نفس بما كسبت رهينة »

« سورة المدثر »

* * *

« ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا »

« سورة الانبياء »

* * *

« يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا »

« سورة آل عمران »

* * *

« اذا السماء انفطرت • واذا الكواكب انتشرت • واذا البحار فجرت • واذا القبور بعثرت • علمت نفس ما قدمت واخرت • يا ايها الانسان ما غررك بربك الكريم الذي خلقك فسواك فعدلك • في أى صورة ما شاء ركبك »

« سورة الانفطار »

* * *

« واذا النفوس زوجت • واذا الموءودة سئلت • بأي ذنب قتلت • واذا الصحف نشرت • واذا السماء كشطت • واذا الجحيم سعرت • واذا الجنة أزيلت • علمت نفس ما أحضرت »

« سورة التكويد »

وجملة ما قيل في معنى « النفوس زوجت » أنها تقرن بمفوماتها وأعمالها
أو تضم الى أشباهها وقرنائها

فحساب النفس من حساب الانسان ، ولكن الذات الانسانية أعم من
النفس ومن العقل ومن الروح حين تذكر كل منها على حدة ، فان الانسان
يحاسب نفسه لينهاها عن هواها ، ولكن الروح من أمر الخالق الذي لا يعلم
الانسان منه الا ما علمه الله ، ويتوسط العقل بين القوتين فهو وازع الغريزة
ومستلهم لهداية الروح

ولعلنا نفقه من هدى القرآن ترتيب هذه القوى في الذات الانسانية .
وعمل كل منها في القيام بالتكليف وتمييز الانسان بمنزلة الكائن المسئول .

فالانسان يعلو على نفسه بعقله ، ويعلو على عقله بروحه ، فيتصل من
جانب النفس بقوى الغرائز الحيوانية ودوافع الحياة الجسدية ، ويتصل من
جانب الروح بعالم البقاء وسر الوجود الدائم وعلمه عند الله . . . وحق العقل
أن يدرك ما وسعه من جانبه المحدود ، ولكنه لا يدرك الحقيقة كلها من جانبها
المطلق الا بايمان والهام

الأمانة

وردت كلمة الأمانة والأمانات في خمسة مواضع من القرآن الكريم ، وكلها بالمعنى الذى يفيد التبعة والعهد والمسئولية وخصصت هذا المعنى فى آية من « سورة البقرة » بوديعة المال وما اليه . اذ قال تعالى فى سياق وثائق الديون :

* * *

« يا أيها الذين آمنوا اذا تداينتم بدين الى أجل مسمى فاكتبوه ، وليكتب بينكم كاتب بالعدل ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله » الى قوله تعالى : « فان أمن بعضكم بعضا فليؤد الذى ائتمن أمانته وليتق الله ربه » .

* * *

ففى هذه الآية خصصت الأمانة بما يؤمن عليه المرء من الودائع والديون ، ولكننا لا نخرج من الآية بغير التذكير المؤكد بمعنى الأمانة العامة ، وهى الحق والفريضة ومنها حق العلم وفريضته ، فلا يجوز لمن علم علما أن ينسى حقه :

* * *

« ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله » .

* * *

وكل ما ورد فى غير سياق الديون والودائع فالحكم فيه عام ، وان ورد على سبب خاص ، لأن مناسبات النزول لا تمنع سريان الحكم والتبليغ الى جميع المخاطبين بآيات الكتاب .

جاء في سورة النساء : « ان الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ،
واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل »

قال الامام الزمخشري في الكشف : « الخطاب عام لكل أحد في كل
أمانة . . . وقيل : نزلت في عثمان بن طلحة بن عبد الدار ، وكان سادن
الكعبة ، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين دخل مكة يوم الفتح
أغلق عثمان باب الكعبة وصعد السطح وأبى أن يدفع المفتاح إليه وقال :
« لو علمت انه رسول الله لم أمنعه » ، فلوى على بن أبي طالب رضى الله عنه
يده وأخذه منه وفتح ، ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم وصلى ركعتين .
فلما خرج سأله العباس أن يعطيه المفتاح ويجمع له السقاية والسدانة ،
فنزلت الآية ، فأمر عليا أن يرده إلى عثمان ويعتذر إليه ، فقال عثمان لعلي :
« أكرهت وآذيت ثم جئت ترفق ؟ » فقال : « لقد أنزل الله في شأنك قرآنا » .
وقرأ على الآية . فقال عثمان : « أشهد أن لا إله الا الله وأشهد أن محمدا
رسول الله . . »

ومضى الامام الزمخشري في تفسير الآية إلى أن قال : « وقيل هو خطاب
للولاة بأداء الأمانات والحكم بالعدل ، وقرئ الأمانة على التوحيد »

وفي الجلالين ان الآية « وان وردت على سبب خاص فعمومها معتبر
بقريئة الجمع » . .

ويقول الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده : « ان الظاهر أنها نزلت قبل
فتح مكة وأن النبي عليه السلام تلاها استشهادا »

ومن تفسيرات المتأخرين تفسير الجواهر للشيخ طنطاوى جوهرى يقول
ان الأمانة « كل ما أؤتمنتم عليه من قول ، أو عمل ، أو مال ، أو علم ،
وبالجملة كل ما يكون عند الانسان من النعم التى تفيد نفسه وغيره » وان
الخطاب موجه إلى الناس عامة وإلى الحكام وولاة الأمور

وكذلك الأمانات والعهد فيما ورد في سورة المؤمنون :

« والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون »

* * *

فهى تشمل كل ما يرباه الانسان من عهد وذمة • وهذا هو معنى الأمانات فى سورة الانفال ، وعلى هذا المعنى - اجمالا - يفهم كل تبليغ خطب به الناس عامة وان نزلت به الآيات لمناسبة خاصة

أما الامانة التى عرضت على الخلق عامة ، فحملها الانسان ولم يحملها أحد من خلقه ، فهى أعم من المناسبات الخاصة والمناسبات العامة بالنسبة الى أحكام التبليغ ، لان الأمر فيها أمر التكوين والاستعداد بالفطرة التى فطر عليها العاقل وغير العاقل واستعد لها الحى وغير الحى ، والمخاطب بالتبليغ وغير المخاطب •• وفى هذا الموضع من القرآن الكريم ذكرت هذه الفطرة مقرونة بفطرة الخليفة كلها ، وذكرت ومعها صفة الانسان التى تخصه بين عامة المخلوقات حين يتقبل أعباءها ويحملها ، وما كان ليحملها الا أن يتعرض لتبعاتها فهو ظلم جهول •• ظلم لأنه يتعدى الحدود وهو يعرفها ، وجهول لأنه يتعدى تلك الحدود وهو لا يعلمها ، وعنده أمانة العقل التى تهديه الى عملها •• وما من كائن غير الكائن العاقل يوصف بالظلم والجهل ، لأنه لا يعرف الحد الذى يتعداه ولا تناط به معرفة الحدود • وانما يوصف بالظلم والجهل من يصح أن يوصف بالعدل والمعرفة ، ومن يصح أن يسأل عن فعل يريده فى الحالى

* * *

قَالَ تَعَالَى : « انا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان انه كان ظلوما جهولا »

• سورة الاحزاب •

* * *

وذكرت هذه الفطرة الانسانية فى موضع آخر من الكتاب ، مع ذكر تكريم الانسان وولايته زمام الكائنات مفضلا على كثير من المخلوقات ، فقال تعالى فى سورة الاسراء :

« ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات
وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا »

« وكثيرا ممن خلقنا » فى هذه الآية تشمل كل مخلوق لم يكن أهلا
لأمانة الخير والشر أو لأمانة التكليف ، بما أودع فيه من فطرة التكوين

ولقد وضع معنى « الأمانة » فى هذا الحكم العام وضوحا لا يقبل
اللبس أو الانحراف بالفهم عن جوهره المقصود ، وهو التكليف .. ومن لم
يذكره من المفسرين بنصه ، ذكره بمقتضياته ومتعلقاته ، رضى ملازمة له
لا تنفك عنه ..

وهذه أمثلة من أقوال المفسرين الذين تناقلوا الرواية بالمعنى الذى فهم
من كلمة الأمانة منذ صدر الاسلام الى القرن الرابع عشر للهجرة

قال الامام الزمخشري المتوفى سنة ٥٢٨ للهجرة : « يريد بالأمانة الطاعة
فعظم أمرها وفخر شأنها ، ويراد بها الطاعة لأنها لازمة الوجود كما أن
الأمانة لازمة الأداء ، وعرضها على الجمادات وابطؤها واشفاقها مجاز ، وأما
حمل الأمانة فمن قولك : فلان حامل للأمانة أو محتمل لها ، نريد انه لا يؤديها
الى صاحبها حتى تزول عن ذمته ويخرج من عهدها »

وقال الفيلسوف الفخر الرازى المتوفى سنة ست وستمائة للهجرة :
« انا عرضنا الأمانة أى التكليف وهو الأمر بخلاف ما فى الطبيعة ، واعلم أن
هذا النوع من التكليف ليس فى السماوات ولا فى الأرض لأن الأرض والجبل
والسماء كلها على ما خلقت عليه : الجبل لا يطلب منه السير ، والأرض
لا يطلب منها الصعود ولا من السماء الهبوط ، ولا فى الملائكة ، لأن الملائكة
وان كانوا مأمورين منهيين عن أشياء لسن ذلك لهم كالأكل والشرب لنا ،
فيسبحون الليل والنهار لا يفترون كما يشتغل الانسان بأمر موافق
لطبيعته ... »

قال الامام الفيلسوف فى تفسير حمل الأمانة : « لم يكن اباؤهم كآباء ابليس فى قوله تعالى : « أبى أن يكون مع الساجدين » من وجهين أحدهما ان هناك السجود كان فرضا ، وعاشنا الأمانة كانت عرضا ، وثانيهما ان الالباء كان هناك استكبارا وهاهنا استصغارا : استصغرن أنفسهم ، بدليل قوله تعالى : « وأشفقن منها » ٠٠٠ وقال بعضهم فى تفسير الآية ان المخلوق على قسمين : مدرك وغير مدرك ، والمدرك منه من يدرك الكلى والجزئى مثل الأدمى ، ومنه من يدرك الجزئى كالبهايم تدرك الشعير الذى تأكله ولا تفكر فى عواقب الأمور ولا تنظر فى الدلائل والبراهين ، ومنه من يدرك الكلى ولا يدرك الجزئى كالملك يدرك الكليات ولا يدرك لذة الجماع والاكل ٠ قالوا : والى هذا أشار الله تعالى بقوله : « ثم عرضهم على الملائكة فقال : أنبئوني بأسماء هؤلاء » ، فاعترفوا بعدم علمهم بتلك الجزئيات ، والتكليف لم يكن الا على مدرك الأمرين ٠ اذ له لذات بأمور جزئية فمنع منها لتحصيل لذات حقيقية هي مثل لذة الملائكة بعبادة الله ومعرفته ، وأما غيره فان كان مكلفا يكون مكلفا لا بمعنى الأمر بما فيه عليهم كلفة ومثقة ، بل بمعنى الخطاب ٠ فان المخاطب يسمى مكلفا كما أن المخاطب مكلف ٠٠٠ »

* * *

وقال الامام ابن كثير المتوفى سنة ٧٧٤ للهجرة : « ٠٠٠٠ عن ابن عباس : يعنى بالأمانة الطاعة ، عرضها قبل أن يعرضها على آدم فلم يطقها ، فقال لآدم : انى قد عرضت الأمانة على السماوات والأرض والجبال فلم يطقنها ٠٠ فهل أنت آخذ بما فيها ؟ قال : يا رب ٠٠ وما فيها ؟ قال : ان أحسنت جزيت وان أسأت عوقبت ، فأخذها آدم فتحملها ٠٠٠ وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس : الأمانة الفرائض ، عرضها الله على السماوات والأرض والجبال ، ان أدوها أثابهم وان ضيعوها عذبهم ، فكروها ذلك وأشفقوا من غير معصية ، ولكن تعظيما لدين الله ألا يقوموا بها ، ثم عرضها على آدم فقبلها بما فيها ٠٠ »

« قال مجاهد وسعيد بن جبيرة والحسن البصرى وغير واحد أن الأمانة هي الفرائض ٠٠ ثم أورد الامام ابن كثير أقوالا أخرى مروية بأسماء أصحاحها ،

وعقب عليها قائلا إنها كايما ، لا تنافى بينها ، بل هى متفقة وراجعة الى انها التكليف وقبول الأوامر والنواهي بشرائها »



رجاء فى تفسير الإمام الميرزا موسى المتوفى سنة ٩١١ للهجرة : « انا عرضنا الأمانة ، الصلوات وغسیرها ، مما فعلها منه الشواب وتركها منه العقاب ... »



رقال الإمام محمد جمال الدين القاسمى المتوفى سنة ١٣٣٢ للهجرة :

« ... عبر عنها بالأمانة تنبيها على أنها حقوق مرعية أودعها الله تعالى المكلفين ، واثمتهم عليها ، وأوجب عليهم تلقيها بحسن الطاعة والانقياد ، وأمرهم بمراعاتها والمحافظة عليها وأدائها من غير اختلال بشىء من حقوقها ، ومعنى الآية أن تلك الأمانة فى عظم الشأن بحيث لو كلفت هاتيك الاجرام العظام - التى هى مثل فى القوة والشدة - مراعاتها ، وكانت ذات شعور وادراك ، لأبين قبولها وأشفقن منها ... أما قوله تعالى : وحملها الانسان أى عند عرضها عليه ، اما باعتبارها بالإضافة الى استعداده ، أو بتكليفه أياها يوم الميثاق - أى تكليفها والتزمها مع ما فيه من ضعف البنية ورخاوة القوة ، وهو اما عبارة عن قبوله لها بموجب استعداده الفطرى ، أو من اعترافه بقوله : بلى ... وقوله تعالى : « انه كان ظلوما جهولا » اعتراض وسط بين الجمل وغايته للايذان من أول الأمر بعدم وفائه بما عهده وتحمله ، أى انه كان مفرطا فى الظلم مبالغا فى الجهل ، أى بحسب غالب أفراد الذين لم يعملوا بموجب فطرتهم السليمة ... »



ونقل صاحب تفسير الجواهر زبدة هذه المعانى ، ثم نقل تفسير الفيروزباده معنى حمل الأمانة ، اذ قال : « فأبين أن يحملنها ... وحملها الانسان » أى أبين أن يخنها وخانها الانسان . قال : والانسان هنا هو الكافر والمنافق .

ولا نختم هذه المقتبسات قبل أن نعود الى الاستدراك الذى بدأناها به «
وهو الاتفاق على معنى التكليف ، وان الاختلاف على المدام التى تترتب عليه
انما هو الدليل على معنى الاستعداد الفطرى للمدام وما عداها ، أو على معنى
الوقوع فى المذمة . بمجاوزة حدود التكليف ، ظلما مع العلم بها ، وجهلا مع
القدرة على التعلم والاسترشاد فى أمرها »

الا أن معنى الاستعداد الفطرى لا يخفى اذا روجت الآيات التى ورد
فيها ذكر صفات « الانسان » بمعنى جنس الانسان فانه يذكر بهذه
الصفات فى مواضع كثيرة مع ذكر آيات التكوين والخلق وتصريف قوى
الطبيعة ، فقد ذكر تكريم بنى آدم مع السلطان على البر والبحر والزرع
والضرع والتفصيل على كثير من خلائق الله ، وذكر ظلم الانسان وجهله
مع انفراده بالفطرة المستعدة للتكليف بين خلق السماوات والأرض ، وذكر
فى غير هاتين الآيتين بقبوله للخير والشر مع الايمان بالجزاء والتذكير بخلق
الليل والنهار وخيرات الأرض وحساب الأفلاك ، ومن ذاك وفيه الاشارة الى
أمثاله من الآيات :

« ويوشى المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا ، وان
الذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذبا أليما • ويدع الانسان بالشر دعاءه
بالخير وكان الانسان عجولا • وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل
وجعلنا آية النهار مبصرة لتبينوا فهملا من ربكم ولتعلموا عدد السنين
والحساب وكل شيء فصلناه تفصيلا »

« سورة الاسراء »

فقد ذكرت هنا فطرة الاستعداد للخير والشر مع ذكر الايمان بالجزاء
وتصريف الليل والنهار ، وعجلة الانسان على حساب العواقب وهو أهل
لحساب ، حساب الشاهد والغائب ، وحساب النور والظلام وحساب السنين
والأيام

التكليف والحرية

من شروط التكليف طاعة وحرية ..

وهذه بديهية يغفل عنها كثير من المجادلين في قضية القدر ، وفي قضية الايمان ، وفي قضية التكليف والجزاء ، فيقصرّون النظر على شرط الحرية ويهمّلون شروط الطاعة كأنه مناقض للجزاء وكأنه من اللازم عقلا أن يكون الجزء مقرونا بالحرية المطلقة ، وهي في ذاتها استحالة عقلية بكل احتمال يخطر على البال في فهم خلق الانسان .. فمن بحث عن الايمان بالتكليف غير ناظر الى شرط « الطاعة » فلا جرم يضل عنه ولا ينتهي فيه الى قرار ، لأنه يبحث عن شيء آخر ولا يبحث عن التكليف ولا على الايمان ..

في القرآن خطاب متكرر الى العقل ، وبيان متكرر لحساب الانسان العاقل على الخير والشر ، مع اسناد الارادة اليه في استحقاقه للثواب والعقاب ..

وفيه آيات صريحة تسند الارادة الى الله ، وتقرر انه - سبحانه وتعالى - هو الخالق المقدر الذي يقدر الهداية والضلال ، ويعطي كل شيء خلقه وبهديه ، وهي آيات كثيرة مقصودة بالتكرار وان لم تبلغ في الكثرة عدد آيات الخطاب والتكليف ، وآيات التذكير بالعقل والنظر والتمييز والتفكير

« فهسى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق باذنه والله يهتدى من يشاء الى صراط مستقيم »

« سورة البقرة »

« قل أمر ربي بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه »

مخلصين له الدين كما بدأكم تهودون • فريقا هدى وفريقا حق عليهم
الضلالة »

« سورة الاعراف »

« سمع اسم ربك الأعلى • الذى خلق فسوى • والذى قدر فهادى »

« سورة الأعلى »

« وما أرسلنا من رسول الا باسمنا قومه ليعبين بهم فيضمل الله من يشاء
ويهدى من يشاء وهو العزيز الحكيم »

« سورة ابراهيم »

« يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة
ويضمل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء »

« سورة ابراهيم »

وكثرة الآيات بهذا المعنى تبعد عن الذهن أن يكون فيها مجال للتأويل
بغير معناها الظاهر على اختلاف العبارة والمناسبة ، فمعناها الظاهر الذى
لا تأويل فيه ان الله سبحانه وتعالى هو الفعال لما يريد الذى يخلق عباده
ويخلق ما يعملون

أفى هذا تناقض فى حكم العقل اذا نظرنا الى الأمر كله نظرة المعقول
ولم نقصر النظر الى النصصوص ، أو الى واجب الاعتقاد بمقتضى هذه
النصوص ؟ ..

ان الرجوع بالقضية الى أسسها المحتملة على كل احتمال ، ينفى

٤ - الانيمان فى القرآن الكريم

التناقض ، ويرينا كيف يكون هذا الاعتقاد « حلا للمشكلة » من أسسه
المفروضة جميعا ، وخروجا من التناقض الذى يلزمها على كل احتمال غير هذا
الاحتمال . . .

وليكن الانسان روحا وعقلا خلقه الله ، أو يكن تركيبا عارضا من
تراكيب المادة لم يخلقه أحد ، على قول المؤمنين بالمادة مجردة من الفكر
والارادة . . .

وليكن التكليف ارادة من عند الله أو يكن ضرورة من فضاء الواقع
لا يرتبط بها أمر ولا جزاء . . .

فكيف يتصور العقل ارادة الانسان على كل احتمال ؟

انه لا يتصورها ارادة مطلقة من جميع القيود ، لأن ارادة انسان
واحد تنطلق بغير قيد هي قيد لكل انسان سواء ، وكيف يأتى هذا الانسان
الواحد بارادته المطلقة منفردا بها بين أمثاله المقيدين ؟ . .

اما أن يوجد الناس جميعا بارادة مطلقة لكل منهم على سواء ، فهذه
هي الاحالة العقلية فى الفرض والتقدير ، قبل الوصول بها الى الابداع
والتحقيق . . .

فاذا كانت الارادة المطلقة هي ارادة الله ، فخلق الناس مكلفين بغير
ارادة لهم شيء غير معقول وغير مقبول ، لأن سقوط التكليف لا معنى له فى
هذه الحالة الا أن يخلق الناس جميعا متشابهين متماثلين متساوين فى
العمل الصالح الذى يساقون اليه ، كما تساق الآلات ، فلا فضل اذن
للعاقل على غير العاقل ، ولا تمييز للانسان على الجماد المجرد من الحس ، فضلا
عن الحيوان . . .

فاذا وجب تكليف الانسان ، فالعقل الانسانى لا يوجبه الا كما ينبغى
أن يوجب على حالة واحدة لا سواها ، وهي حالة الارادة المخلوقة يودعها
فيه الخالق كما ينبغى أن تودع ، وهي لا ينبغى أن تودع الا على هذا الفرض
الذى يدعوا اليه القرآن . . .

ان الحرية المخلوقة حرية صحيحة كما ينبغي أن تكون في احتمال العمل
مدرك المميز الذي يهتدى بأذن الله لما اختلفوا فيه

ولا يقال ان الحرية التي تخلق ليست بحرية .. فان الحرية غير القيد
سواء كانا مخلوقين أو مطبوعين.. وسواء كانا من عالم الروح أو من عالم
المادة عند التمييز بينهما كما تتمايز قيمة المعدن نفيسا وغير نفيس .
وكلاهما مخلوق أو مصنوع ، فان حسننا للآنية الذهبية والآنية النحاسية
لا ينفي نفاسة الأولى ولا يسوى بين الآيتين المصنوعتين

وليس في العقل شيء يسمى حرية مطبوعة ، تعلو على الحرية المخلوقة
بالانطلاق من جميع القيود .. لأن الانطلاق من جميع القبود غير معقول ، وغير
موجود ..



واذا وجدت للمخلوقات العاقلة حرية أو وجدت لها ارادة ، فلنرجع الى
العقل لنرى كيف يتصورها العقل - أى عقل - وكيف تكون على احتمال واحد
دون كل احتمال ..

انها لا تكون سواء في كل انسان ، لأنها اذا امتنع فيها خلاف القوة لم
يتمكن فيها خلاف الزمن والعمر ، ولا خلاف المكان والجسد ، ولا خلاف الصغر
والكبر ، ولا خلاف الحركة والجمود

واذا امتنع فيها كل هذا الخلاف فليست هي شيء ، اذ ليست
الموجودات التي لم تتمايز ولم تتنوع بأشياء يقبلها التصور ، بل هي عدم
ينقطع عن الوجود.. أو كائن لا تمييز فيه ولا تكليف ولا حسنة ولا سيئة ،
ولا ثواب ولا عقاب

فاذا وجد المخلوق حرا ذا ارادة فلا وجود له الا بهذا الاختلاف في حكم
العقل কিقما كان حكم النصوص

وإذا قضي العقل بهذا دون سواء ، فالعقل هو الذى ينصور ارادة الله
وارادة الانسان على احتمال واحد دون سواء . .

وحكم الايمان هنا وحكم العقل متماثلان ، اذ كان كل ما عدا حرية
« الايمان » فرضا غير معقول ، بل غير موجود

* * *

ونحن اذن فى حل من القول بكفاية العقل وحده لتلقى خطاب التكليف
اذ كان المؤمن والفيلسوف معا يذهبان بالعقل بين نقائص الفروض ، فلا
يستقران على فرض ممكن أو صالح غير اعتماد التكليف على العقل
واعتماد العقل على الايمان

وانما تساورنا الحيرة فى مسائل الايمان عامة من خطأ شائع يورثهم أناسا
من المندنين والمنكرين ان الايمان على الدوام تسليم بما يأباه العقل وبما
يتقبله - اذا نقبله - وهو مغمض العين مكتوف اليد ، يتساوى منه النظر
وترك النظر ، بلا اجتهاد ولا محاولة ولا موازنة بين ما يجوز وما يمتنع
كل الامتناع

هذا ايمان يلغى العقل ويلقى به بعيدا الى طرف التصديق بغير سؤال
ولا انتظار جواب . . فاما عقل ولا تصديق ، واما تصديق ولا عقل : ضدين
لا يجتمعان . .

* * *

والفرق بعيد بين الايمان الذى يلغى العقل ، والايمان الذى يعمل فيه
العقل غاية عمله ، ثم يعلم من ثم أين ينتهى وأين يبتدىء الايمان . .
ان الايمان هنا نتيجة لعمل العقل غاية جهده ، وليس نتيجة لاهماله
وابطال وجوده . .

والعقل يستطيع أن يصل الى هذه النتيجة ، فتلزمه حجة الدعوة الى
التصديق بالغيب المجهول . .

والعقل يستطيع أن يعلم بضرورة الايمان . لأن انكار هذه الضرورة
نقيضة عقلية وليس بنقيضة للدين والعقيدة وحسب ، ولا سبيل للعقل الى
الايمان بموجود كامل مطلق الكمال يصح أن يؤمن به غير الاعتراف بضرورة
هذا الايمان ولزومه - منطلقا - قبل لزومه لهداية الضمير

فالموجود الذي يصح أن نؤمن به هو وجود كامل أبدي ليست له
حدود . . .

والموجود الذي ليست له حدود لا يحيط به ادراك العقل المحدود . . .

فما النتيجة اللازمة لهذه الحقيقة التي لا شك فيها . . .
هي احدى اثنتين . . . اما انكار جزاف ، واما تسليم بحقيقة تفوق ادراك
العقول . . .

والانكار الجزاف يوقع العقل في نقيضين ، وهو تعطيل للعقل أضل له
من كل تعطيل . . .

الانكار معناه أن سبب الايمان الوحيد ، يكون هو السبب الوحيد .
للانكار . . .

ان الموجود السرمدى الكامل المطلق الكمال هو الاله الذى نريده
بالايمان ، وهذا هو حقه فى ايمان العقلاء بوجوده وربوبيته

ولكن العقل المحدود لا يحيط بالموجود المطلق الذى ليست له حدود

أفيقول العقل اذن : « لا ايمان بهذا الموجود المطلق لأنه هو الموجود .
الذى يصح فى العقل أن نؤمن به ونبحث عنه ، ولا يصح فى العقول ايمان
بغيره ؟ » . . .

العقل لا يقول هذا . . .

والعقل اذا قال بضرورة الايمان على هذه الصفة ، وبهذا الحق ، لم يـ

يكن قد ألغى عمله وأبطل وجوده ، بل هو يبلغ بذلك غاية عمله ، فهو عقل
يزيد عليه ايمان ..

ان العقل الذى يزيد عليه الايمان ، هو العقل الذى خاطبه القرآن
بالتكليف ، أو هو العقل المؤمن الذى تعنيه النبوة بالتذكير والتبشير ، وهو
المستول أن يستمع الى النبى المرسل من عالم الغيب ، فلا معذرة له بعد حجة
الغيب والتسليم ، وبعد حجة الشهادة والتفكير

* * *

ومع التسليم بهذا الموجود الكامل ، لا يعرف عقل الانسان تكليفا غير
التكليف الذى بسطته نصوص القرآن ، فلا معنى للتكليف أصلا ان لم
تكن فيه طاعة وحرية ، ولا معنى للحرية من وراء ارادة الخالق و ارادة
المخلوق ..

أسرة واحدة

خيل الى علماء القرن السابع عشر من الغربيين أنهم مطالبون بتغيير كتاب العلم من الألف الى الياء ، وان تعريف شيء من الأشياء في عقائد القرون الوسطى كاف لرفضه ولإعادة بحثه ثم أعادته الى الاصطلاح بمدلول جديد

وأول هذه التعريفات المتبدلة تعريف الانسان حسب موضعه من هذا العالم ، لأن الانسان لم يزل في كل عصر ، وفي كل علم ، وفي كل عقيدة ، مقياسا لما عداه من خلائق هذا العالم، بل مقياسا للعالم أجمع ، يتبدل النظر اليه كلما تبدل النظر الى الوجود بأسره .

لم يتبدل النظر الى مركز الكرة الأرضية من الأجرام السماوية . حتى خيل الى كثير من الفلكيين والجغرافيين أن حقائق السماوات والأرضين قد تغيرت لأن الكرة الأرضية مركز الانسان .

وقد أعيد النظر الى مكان الانسان من الخليقة كلها ، فوضعه علماء الحيوان بموضع واحد مع طبقة الأحياء التي عرفوها باسم الأوائل *primates* وهي في الذروة من طبقات الحيوان اللبون

وأعيد « تصنيف » هذا النوع الحيواني فذهب بعضهم بعيدا في تقسيمه الى عناصر ، والى الرجوع بكل عنصر منها الى نوع من القرود الأوائل ، كما سيجيء في الكلام على آراء النشوئين القائلين بالتطور والارتقاء

والذين قالوا انه نوع واحد لم يرتابوا في تقسيمه الى « عناصر » أو سلالات تكاد – لولا التناسل فيما بينها – أن تعتبر أنواعا مستقلة بتراكيب أبدانها وعقولها ، بل قال بعضهم ان تجارب العلم لم تثبت امكان التناسل بينها ، ولم تنف امكان التناسل بين بعضها وبعض أنواع القرود المشابهة للبشرية ، ويجب أن نتمهل قليلا قبل التحقق من أن السلالات الانسانية

كلها قابلة للتوالد فيما بينها ، كما يتوالد ذكور الحيوان ، واناته من النوع الواحد بغير عائق للنمو في دور الحمل ودور الطفولة . .

والذين قنعوا باختلاف العناصر والسلالات ، لم يقنعوا بالقليل من فوارق هذا الاختلاف . فمنهم من كاد يجعل السلالة « الآرية » نوعا « سيكولوجيا » يضارع النوع « البيولوجي » في الاختلاف وفي قابلية التفاهم « والتعامل ، و « تناسل » العواطف والأفكار

وعادوا بعد الحرب العالمية الثانية الى التراجع السريع في هذا . « التصنيف » الذي خيل الى أصحابه قبل جيل واحد أنه حقيقة واقعة تستغني بالنظر عن البرهان ، وما كانوا ليسرعوا هذا الاسراع في التراجع لولا بلاء « الانسانية » بعواقب ذلك « التصنيف » الوبيل ، لانه التصنيف الذي سوغ لعنصر من العناصر أن يستبيح السيادة على الأمم عنوة ، وأن يستكثر حق الآدمية على تلك الأمم التي لم يدخلها معه في قرابة الانسان للانسان . .

فمن كبار علماء الأنواع في العصر الحاضر من يقول ، كما جاء في كتاب قرن من مذهب دارون : « ان التفرقة بين عناصر النوع الانساني اعتساف أو توسع في التعبير ، فقد نقسم النوع الانساني الى عنصرين كبيرين يسكن أحدهما في القارتين الآسيوية والأوربية والأمريكتين ، ويسكن الآخر في افريقية وبلاد الملايا والنقارة الاسترالية . فاذا أردنا المزيد من الحصر فقد نقسمها حسب الألوان الى بيضاء وصفراء وحمراء وسوداء وسمراء . ونزيد حصرا فنبلغ بها ثلاثين . ولا يمنعنا أن نجعلهم مائتين الا صعوبة التفاهم على هذا التقسيم » .

* * *

فجوى هذا ، ان فوارق العناصر فوارق أسماء وعناوين ، وأن « الانسان » أسرة واحدة على تعدد أبنائها وتعدد أقسامها واختلاف الألقاب اللغوية التي تطلق على تلك الأقسام

* * *

فجوى هذا أن القرآن قد وضع الانسان - علما ودينا - فى موضعه الصحيح ، حين جعل تقسيمه الصحيح انه « ابن ذكر وأنثى » وانه ينتمى بشعوبه وقبائله الى الأسرة البشرية التى لا تفاضل بين الاخوة فيها بغير العمل الصالح ، وبغير التقوى . .

* * *

« يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم ان الله عليم خبير »

« سورة الحجرات »

* * *

وقد نسميهم بأصطلاح الأسماء « أمما » كثيرة كلما تباعدت بينهم المواطن وتحيزت بهم الحدود ، وتشعبت بينهم العقائد واللغات ، ولكنهم قبل هذا الاختلاف أمة واحدة لها اله واحد : هو رب العالمين

* * *

فاذا كانوا قد تعددوا شعوبا وقبائل كما جاء فى الآية الشريفة ، فانما كان هذا التعدد أقوى الأسباب لاحكام صلة التعارف بينهم وتعريف « الانسانية » كلها بأسرار خلقها . . فان تعدد الشعوب والقبائل يعدد المساعى والحيل لاستخراج كنوز الأرض واستنباط أدوات الصناعة ، على حسب المواقع والأزمنة ، وعلى حسب الملكات والعادات التى تتفتح عنها ضرورات العيش والذود عن الحياة . فينجم عن هذا ما لا بد أن ينجم عنه من تعدد الحضارات وأفانين النقصافة ، وتزداد « الانسانية » عرفانا بأسرار خلقها ، وعرفانا بخالقها ، واقتربا فيما بينها ، وتضطر اليه اضطرابا لما تحسه من اشتباك منافعها وسريان الضرر من قريبها الى بعيدها .

* * *

« ومن آيات خلق السماوات والأرض واختلاف المستكم وألوانكم ، ان فى ذلك لآيات للمالين »

« سورة الروم » -

وهذا هو حكم القرآن في وحدة بنى الانسان ، وفي تدعيم هذه الوحدة ، بما يحسبه الناظر المتعجل بابا من أبواب الافتراق والتباين ، وهو تعدد الشعوب والقبائل واختلاف اللغات والألوان :

* * *

« وما كان الناس الا امة واحدة فاختلّفوا ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم فيما فيه يختلفون »

« سورة يونس »

* * *

« كان الناس امة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين »

« سورة البقرة »

* * *

« ولو شاء ربك لجعل الناس امة واحدة ولا يزالون مختلفين »

« سورة هود »

* * *

« ولو شاء الله لجعلكم امة واحدة ولكن ليلبّوكم فيما آتاكم فاستبقوا

الخيرات »

« سورة المائدة »

* * *

ان هذه الوحدة في صلة الانسان بالانسان مشدودة الازر بالوحدة بين الناس كافة في الصلة بالله - ربهم ورب العالمين - الذى يسوى بينهم ويدينهم بالرحمة والانصاف ، ثم لا يقضى بينهم فيما اختلفوا فيه الا بقسطاس العدل ، أيهم أحسن عملا وأقرب الى التقوى واستباق الخيرات :

* * *

« والهكم اله واحد لا اله الا هو الرحمن الرحيم »

« سورة البقرة »

« قل انما أنا بشر مثلكم يوحى الى أنما الهكم اله واحد • فمن كان
يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا »

« سورة الكهف »

« ان هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون »

« سورة الأنبياء »

« قل انما يوحى الى أنما الهكم اله واحد فهل أنتم مسلمون »

« سورة الأنبياء »

* * *

ولقد كان من الحق في ذمة العلم أن يترى علماء المقابلة بين الاديان
طويلا ، عند هذه المرحلة العظمى في تاريخ العقيدة ، وفي تاريخ الفكر ، وفي
تاريخ القيم الأخلاقية ، بل في تاريخ الحياة الانسانية من مطلعها في ظلمات
الماضى المجهول الى هذا الأوج السابق الذى ارتفعت اليه بعد ألوف
السنين ، وما كانت لترتفع اليه بعمل ولا عقيدة غير العقيدة في رب واحد
هو رب العالمين ••

انها لم تكن كلمة في موضع كلمة ، ولم تكن صفة من صفات التقديس
بديلا من صفة مثلها ، ولم تكن رمية من غير رام على لسان ناسك ذاهل يقول
في تسبيح المعبود كيف يقول ••

انها لم تكن لفظة من لفظات الساعة ، تهيم بالنظر الشارد في تيه من
السحر والكهانة ، ثم لا تبالى أن تعود الى خلفها كما تعود الى أمامها ، على غير
هدى ••

لو كانت كذلك لذهبت في غمار الكلمات والأوهام ، ولم يبال من لفظها
بها أو استمع اليها أن يعيدها مرتين ••

ولكنها كانت قبلة يستقبلها الانسان على سواء لم يكن بالغه لزم
يعتدل اليه في مطلع الطريق ، وهيئات - على غير هذه القبلة - أن ينتظم
للانسان مسلك معقول الى الرشده والضمير ..

ان قيم الأعمال والأخلاق ، لا قوام لها مع الايمان برب هو رب هذا
القبيل أو هذا الشعب ، بين من خلق الله من قبائل لا يختارها وشعوب
لا ينظر اليها ..

وان هذه القيم لغو عند اناس يحيق بهم الذنب وما اقترفوه ، ويهبط
عليهم الغفران وما صعدوا اليه ويتقبلون بين النعمة والنعمة بغير جريرة من
اثم وبغير شفاعاة من توبة ، وبغير نية للإساءة ولا نية للتكفير ..

ان العالم الانساني كلمة غير مفهومة عند من يدب برب غير رب
العالمين ، وان قيم الأخلاق كليل جزاف حين تنقطع الأسباب بين الحسنات
والسيئات وبين الثواب والعقاب ، وان « الانسانية » الجامعة شيء لا وجود له
قبل أن يوجد « الانسان المستول »

وانما توجد « الانسانية الواحدة » ويتساوى الانسان والانسان مع
الاله الواحد الأحد ، رب الناس ورب العالمين أجمعين ، أفضلهم عنده أتقاهم
وأصلحهم وأسبقهم الى الخيرات

وما التقوى ؟ ..

التقوى كلمة واحدة تجمع كل وازع يزع الضمير ..

وأقدر الناس على أمانة التقوى ، أقدرهم على النهوض بالتبعة ،
وأعرفهم بمواضع المعروف والمنكر والمباح والمحظور

والانسان التقى مرة أخرى هو الانسان « الانسان »

ما هذه التقوى التي يتعلق بها كل فضل الانسان عند رب العالمين ؟

لو شاء فلاسفة الأخلاق لعلموا ماهي هذه التقوى ، وعلموا حقا ان

موازينهم جميعا لا تحسن الترجيح بين فضل وفضل وبين قدرة وقدرة كما تحسنه هذه « النقوى » التى يحسبونها « تسبيحة » من تسابيح المعابد ، ويخيل اليهم أنها أفشل من أن تمنع العالم المحقق فى مقام الموازنة والتفضيل . . فليس بين فاضل ومفضول قط من رجحان غير رجحان الأفضل فى القدرة على التبعة ، بما طاب لهم من ألوان التبعات

هى موضع الرجحان للعالم على الجاهل ، وللرشيد على القاصر ، وللذكى على الغبى ، وللقادر على العاجز ، وللمهذب على الغدم ، وللمجدود على المحروم ، وللعنى على الفقير ، وللسيد على العبد ، وللحاكم على المحكوم ، ولصاحب الخلق المكين على صاحب الخلق الهزيل ، ولكل فاضل - بالايجاز - على كل مفضول

وما من ميزان ينفع فلاسفة الأخلاق فى طائفة من هذه الخصال ، الا خذلهم فى طائفة غيرها . . بل فى أكثرها وأوجها الى الموازنة والتفضيل

فليست « جملة » الانسان مائلة فى تفضيل العلماء على الجهلاء أو الراشدين على القصر ، أو الأذكىاء على الأغبياء ، أو غير هؤلاء على غير هؤلاء من الفاضلين على المفضولين . فان العالم يفضل الجاهل بالعلم ولا مرا . . ولكنه قد يؤب مفضولا عند المقابلة بينهما فى باب من أبواب الخبرة أو نزعة من نزعات الفطرة ، وهكذا كل راجح وكل مرجوح بميزان المال أو النسب أو الخلاق والعادات ، ولكننا اذا حكمنا بأن انسانا يفضل انسانا بالقدرة على التبعات ، فهو الراجح لا مرأ فى كل ميزان من موازين المفاضلة بين بنى الانسان ، وكل قيمة تحسب للانسان فهى داخله فى هذا الحساب ، فان جاز أن تهمل ويبقى الانسان بعدها أهلا للرجحان بالتبعات فهى مهمة حقا ولو كان لها شأنها فى غير هذا الانسان . .

* * *

« ان أكبركم عند الله أتقاكم »

* * *

صدق الله العظيم ٠٠ انه لهو القسطاس الذى ينشئ « للانسانية » حقوق المساواة بين أبنائها ديناً وعلماً وفلسفةً وشريعةً وهاماً من الوحي الالهى وتمحيصاً من البديهة الانسانية

ومكان الوحي الالهى فى هذه المساواة انها قد شرعت للانسان شريعتها حقاً من حقوق الخلق والتكوين ، ولم تشرعها له وسيلة من وسائل الحكم واجراء من « اجراءات » السياسة فى ابان الخطر المطبق ، خيفة من ثورة النفوس وتنافساً على عدد الأصوات فى معارك الانتخاب ٠٠ فان أحدا ممن خولهم القرآن تلك المساواة لم يطلبها ، ولم يكن لينالها قبل أن تنزل عليه من وحي رب العالمين . ولكنها لم تنشأ فى حضارة من حضارات العالم القديم أو الحديث الا كان وراءها حيلة أو وسيلة سياسية أو مراوغة تمليق وتسكين ، ولولا حروب أثينا واسبارطة ، وحروب رومة وفارس ، وحروب الأمم فى القرن العشرين ، لما سمع « ديموس » بشئ يسمى الديمقراطية ولا رضىخ « الديموقراطيون » المتأخرون بشئ لذوى المعاول والمناجل أو لذوى الألوان المجندين للمصانع والمعسكرات . ولا سمع العالم بمساواة بين بنى آدم لا فضل فيها لأحد منهم على أحد بغير العمل الصالح وتقوى الله

آدم

قصة آدم عليه السلام في القرآن هي قصة الانسان الأول ..
خلق من تراب .. وارتقى بالخلق السوى الى منزلة العقل والارادة .
وتعلم من الأسماء فضلا من العلم ميزه على خلائق الأرض ، من ذى
حياة وغير ذى حياة ..
وقضى له أن يكسب فضله بجهد ، وأن يكون جهده غلبه لارادته
وانتصارا لعقله على جسده ..
وقصة هذه النشأة الآدمية يستوفيها القرآن في هذه الآيات :

* * *

« ولقد خلقنا الانسان من سلاله من طين »

« سورة المؤمنون »

« ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم . الذى أحسن كل شئ
خلقه وبدأ خلق الانسان من طين . ثم جعل نسله من سلاله من ماء مهين .
ثم سواه ونفخ فيه من روحه . »

« سورة السجدة »

« واذا قال ربك للملائكة انى خالق بشرا من صلصال من حماء مسنون
فاذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين ، فسجد الملائكة كلهم
أجمعون . الا ابليس أبى أن يكون مع الساجدين »

« سورة الحجر »

« واذا قال ربك للملائكة انى جاعل فى الأرض خليفة ، قالوا : أتجعل
فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك . قال :

انى أعلم ما لا تعلمون • وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال :
 أنبئوني بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين • قالوا : سمعناك لا علم لنا الا
 ما علمتنا انك أنت العليم الحكيم • قال : يا آدم أنبئهم بأسمائهم فاما أنبأهم
 بأسمائهم قال : ألم أقل لكم انى أعلم عيب السموات والأرض وأعلم ما تبشرون
 وما كنتم تكتمون • واذا قلنا له الملائكة اسمعوا لآدم فسمعوا الا ابليس أبى
 واستكبر وكان من الكافرين • وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا
 منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين • فأزلهما
 الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عداوة ولكم
 فى الأرض مستقر ومتاع الى حين • فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه انه هو
 التواب الرحيم • قلنا اهبطوا منها جميعا فاما يأتينكم منى هدى فمن تبسح
 هدى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون • • »

« سورة البقرة »

* * *

هذه قصة « نشأة آدم » فى القرآن • •

وهى احدى قصص الخلق والتكوين ، وفى هذه القصص جميعا من
 أمر الغيب ما هو حق الايمان ، وفيها من أمر الحياة الانسانية ما يسعه
 خطاب العقل ، ويتقبله بعلم منه ، يوافق الايمان ، وهو العلم بقيم الحياة
 أو العلم « بالقيم » العليا فى حياة الإنسان وسائر الأحياء

ولباب القيم جميعا ان الفضيلة العليا ارادة وتجربة ، وليست منحة
 يبطل فيها التصرف ويمتنع فيها التمييز • •

فاذا جردنا من عالم التصور مخلوقا يعقل ، ولكنه يحسن ويعجز عن
 الاساءة لأنه مصروف عنها ، ومخلوقا تأتى منه الحسنة كما تأتى منه
 السيئة لأنه لا يميز بينهما ولا يريد هما ، ومخلوقا تكلفه الحسنة جهدا
 ويريدها لأنه يعرف فضلها ويصبر على المشقة فى سبيلها ، فنحن قد ذهبنا
 بالتصور غاية مذهبه لنقف عند قصة آدم والملائكة وما فى الأرض والسماء
 من خليفة ذات حياة أو غير ذات حياة • •

وعلينا أن نؤمن بالتصور مدى آخر ، وراء هذا المدى من تاريخ
الإنسان ، وذلك هو المدى الذى نطلع منه على « سياسة الخلق والتكوين »
على كل صورة من الصور مرة أخرى فى احتمال العقل ، أو فى احتمال
الفرض والتقدير

اننا نعلم من سياسة الخلق ان الأجسام الحية نشأت على الكرة الأرضية
قبل نشأة الإنسان ، فكادت أن تبلغ مبلغ الجبال الصغار وثقل بعضها
وزنا حتى أربى على مئات الأطنان ، ثم فنيت لأنها قصرت عن ملكة التدبير
التي تروض بها هذه الأجسام الضخام . ولسنا نعلم شيئا بغير السماع
والإلهام عن خلايق العقل التي تفردت فيها العقول عن الأبدان ..

والعقل الإنسانى يأبى أن يصدق ان هذا الكون خلو من معدن العقل
الآن . ينبت عرضا فى جزء من مادة الأرض ، بعد نشوء الإنسان

أقرب الى تصديقه — ولا نقول أقرب الى ايمانه وكفى — أن سياسة
الخلق والتكوين تصرفت فى مقادير العقول ، كما تصرفت فى مقادير الأبدان
الى غاية ما تبلغه من الضخامة بمعزل عن العقل وعن فضائل التمييز ..

تلك سياسة الخلق التي أذنت للكائنات العاقلة فى عالم الروح أن تعلم
مداها من الرقى فى معارج الحياة ، وأن تتلقى الأمر بالسجود للقيمة
الجديدة التي تنفرج عنها أستار الغيب ، ويودعها الخالق هذا الكيان
الموسوم بالإنسان ..

ومن بديهة الايمان أن تدع للدين حقه فى تبليغ هذه النشأة الى المؤمنين
بالغيب ، وأن تدع للعقول حقها فيما وسعت من علم ، وفيما وسعها من
تعليم .. ان النشأة الآدمية فى القرآن هى طريق الحياة من الأرض الى
السماء ، أو هى طريق الكائن الحى من المادة الصماء الى الخلاق الحكيم

ولا يأبى القرآن على مؤمن به أن يترسم مسلك الحياة من المبدأ الى
المصير على هذا الطريق الخفى البين ، فانه لعل الجادة فى كل مكان يرددها
الى الأرض ولا يقطعها عن الله

هـ - الإنسان فى القرآن الكريم

الإنسان في مذاهب العلم والفكر

عمر الإنسان

نبدأ هذه الفصول عن الإنسان في مذاهب العلم والفكر بفصل عام عن عمر الإنسان في هذا العالم ، لأن تقدير الزمن الذي مضى على ابتداء حياة النوع الانساني مرتبط بكل بحث عن أصل الإنسان في جميع المذاهب ، ولا سيما مذهب النشوء أو التطور ، وهو أول مذهب يتعين البحث فيه واستقراء ما يقال عنه ، تأييدا وتفنيدا ، في تقرير مكان الإنسان من هذا الوجود ومكانه بعد ذلك من عامة الأحياء

ونرى ان هذا المذهب أول المذاهب التي يتعين بحثها هنا ، لأنه أخرى أن يسمى « مذهب مذاهب » وأن يدرس على سعة تخرجه من حدود المذهب الواحد الذي يقصر على موضوعه الأصيل ، فانه ما كاد يظهر وينتشر بين أصحاب الدراسات حتى عاد هؤلاء يحسبون أنهم مطالبون بإعادة النظر في موضوعاتهم للمقابلة بين قواعدها ومقرراتها قبل انتشار مذهب التطور وبعده . فكتبوا عن تطور العلم وتطور الفن وتطور الأدب وتطور السياسة وعن أبواب شتى من الدراسات ، يقال فيها اليوم غير ما قيل بالأمس تبعا للقوانين أو النظريات التي جاء بها النشويون .

وسنبسط القول في هذا المذهب على وجه خاص على قدر المستطاع في حين هذه الرسالة ، لأنه - على كل فرض من الفروض - دعوى في قضية الإنسان يستمع اليها ولا تهمل كل الإهمال ، ولو اعتقد الناظر فيها - كما نعتقد - أنها تقوم على آراء لا تلزم منها النتيجة التي وصل اليها النشويون لزوم الحتم ، ولكنها معلقة الى حين . ولنبدأ بالكلام فيما يلي عن عمر الإنسان بتقدير العلوم العصرية ، ولا تناقض بين شيء منه وبين شيء مما ورد في آيات القرآن

لم يوجب القرآن على المسلم مقدارا محدودا من السنين لخلق الكون

أو لخلق الإنسان ، ولا نعلم ان ديانة من الديانات الكبرى التي يؤمن بها أبناء الحضارة عرّضت لتاريخ الخليفة غير الديانتين البرهمية واليهودية

والديانة البرهمية لا تقدر عمر الكون ، أو عمر الحياة ، بمقدار محدود من السنين ، لأنها تقول بالدورة الأبدية التي تتكرر فيها حياة الإنسان مع حياة الكون بغير أجل معروف في البداية أو النهاية . وعند البرهمنين أن الكون فلك كبير ، يتم دورته المتكررة مرة في كل ثلثمائة وستين ألف سنة . وقد يزداد هذا القدر أو ينقص في تفسيراتهم الدينية على حسب المقادير المضاعفة عندهم للدورة الشمسية ، وهي عندهم مثل صغير للدورة الكونية الكبرى . وكلما انتهت دورة بدأت أخرى من دورات الوجود السرمدي عودا على بدء الى غير انتهاء

أما المصادر اليهودية ، فهي على حسب تحقيق الفقيه الكبير « جيمس يوشر » المتوفى سنة ١٩٥٦ ، تدل على ابتداء الخليفة في شهر أكتوبر سنة ٤٠٠٤ قبل الميلاد . وقد شرح أسانيده التي بنى عليها هذا التقدير في كتاب ضخّم سماه السجلات القديمة والعهد الجديد
Annales Veteris et Novi Testamenti

وأضيف هذا التاريخ الى نسخة التوراة التي ترجمت على عهد الملك « جيمس » ، وبهامشها تواريخ الحوادث المذكورة في متونها

وظل هذا التاريخ معتمدا في طبعات التوراة المنقولة عن هذه النسخة الى العهد الأخير . ثم أجمع شراح الكتاب العصريون ، يهود ومسيحيون على تقدير السنين والأيام التي وردت في صدد الكلام عن الخليفة بمقادير غير مقادير السنين والأيام الشمسية ، واستندوا الى أن اليوم الشمسي وان السنة الشمسية تساوي مدة دوران الأرض حول الشمس مرة واحدة ، فلا يمكن أن يكون اليوم من أيام الخليفة الستة يوما شمسيا لأن الشمس نفسها خلقت في اليوم الرابع كما جاء في الاصحاح الأول من سفر التكوين . .

« وقال الله : لتكن أنوار في جلد السماء لتفصل بين النهار والليل

وتكون آيات وأوقات وأيام وسنين ، وتكون أنوارا فى جلد السماء لتنير على الأرض . وكان كذلك . فعمل الله النورين العظيمين : النور الأكبر لحكم النهار ، والنور الأصغر لحكم الليل ، والنجوم وجعلها الله فى جلد السماء لتنير على الأرض ولتحكم على النهار والليل ولتفصل بين النور والظلمة . ورأى الله ذلك أنه حسن . وكان مساء وكان صباح يوما رابعا »

* * *

وانقضى القرن السابع عشر والثامن عشر دون أن يعرض لعلماء الغرب ، من مباحث الدين أو العلم ، شئ يدعوهم الى تقدير عمر للخلقة يزيد على ستين قرنا بحساب السنين الشمسية ، ثم تنابعت الكشوف عن ظواهر الطبيعة كيفما تناولتها العلوم الحديثة ، فتضاءلت هذه القرون الستون حتى أصبحت كلمحة البصر الحافظة بالقياس الى أعمار الكائنات السماوية والأرضية ، بعد أن عرف العلماء حساب الزمن بالسنة الضوئية وتحققوا من النظر اليقين الى بعض الكواكب انهم يرونها الآن بعد أن مضت على انطلاق الشعاع منها ملايين من السنوات الشمسية ، وتبين من تحقيق أعمار بعض الأشجار أنها نبتت قبل ميلاد السيد المسيح وقبل دعوة موسى الكليم وابراهيم الخليل ، وتبين من بقايا النبات المتحجر أنه كان ينمو على الأرض قبل مئات الآلاف من السنين ، وقامت تقديرات العلم فى قياس أعمار هذه الكائنات على معايير محققه لا تقل ثبوتا عن قياس الساعات بحركة الرمل أو الماء فى الساعات الرملية والمائية ، لأنهم يبنون هذه التقديرات على المعلوم المحقق من سرعة الاشعاع المعدنى أو مدى الوقت اللازم لتحول العناصر ، وأمثال ذلك من المعايير التى تصلح للقياس عليها. كما يصلح العلم بمقدار الرمل أو الماء ومقدار الوقت اللازم لانصبابه فى صندوقه قياسا لساعات النهار والليل ، وكما يصلح العلم بحركات الكواكب قياسا للسنين والشهور

وقد اشتركت العلوم جميعا فى اتخاذ مقاييسها لتقدير أعمار الكائنات ، فقياس النباتى عمر الشجرة بحلقات جذوعها ، وقياس الطبيعى أعمار البحار

بمقادير الملح الذى أفرغته الانهار فيها ، وقاس عالم الطبقات الأرضية أعمار الصخور بتحول المعادن أو استقرار الرواسب ، أو بإسراع العناصر أو بالأحافير المتحجرة من بقايا النبات والحيوان ، وكلها معايير معقولة ، توغل بأعمار بعض الكائنات رجوعا الى دهور محسوبة بمئات الألوف من السنين ، وتمعن أحيانا فى القدم حتى تحسب بمئات الملايين.

* * *

وأحدث المقاييس العلمية التى تقاس بها عصور ما قبل التاريخ مقياس الكربون المسمى بـكربون (١٤) تميزا له من الكربون (١٢) المسمى بمقدار وزنه الذرى ٠٠ فان العالم الأمريكى « ويلارد ليبى » Wilard Libby صاحب الدراسات المأثورة فى الطبيعيات الذرية ، وجد - قبيل منتصف القرن - ان نصف ذرات هذا الكربون تتحلل فى الأجسام الحية خلال خمسة آلاف وخمسمائة وثمان وستين سنة ، يعمل فيها حساب فرق التقدير بنحو ثلاثين سنة الى الزيادة أو النقصان ، فاذا جمعت بقايا العظام أو الفحم الحجرى ، فمن الممكن وزن ما فيها من كربون (١٤) وتقدير الزمن الذى انقضت فيه حياة الكائن الحى الذى تخلفت عنه تلك البقايا على حسب المقدار المتحلل من ذلك الكربون . فاذا كان هذا المقدار نصفاً ، فقد مات ذلك الكائن الحى قبل خمسة آلاف وخمسمائة وثمان وستين سنة ، واذا كان ذلك المقدار ربعاً فقد انتهت حياته قبل نحو أحد عشر ألف ومائة وست وثلاثين سنة ، ويزيد عدد القرون كلما نقصت نسبة البقية الباقية من الكربون (١٤) بالمقابلة بينه وبين الكربون (١٢) مع ذلك الفارق القليل الذى يحسب فيه الحساب لحطاً التقدير ٠٠

وبهذه المقاييس الكثيرة التى تضبط حساب القرون كما يضبط حساب الأيام والليالى بالساعات الرملية والمائية - قفل تاريخ الانسان على الأرض راجعا الى ألوف القرون بدلا من العشرات أو الآحاد ، ووضع علماء الطبقات والحفائر مقادير الأعمار المتطاولة لكل طبقة من الطبقات الأرضية وجدت فيها بقايا الأجسام البشرية ، وقدروا للطبقة الحجرية ثلاثة

أدوار بين عليا ووسطى وسفلى ، يتراوح تاريخها بين خمسة وسبعين ألف سنة وستمائه ألف سنة ، وتنسب الى الطبقة العليا بقايا الانسان التي وجدت فى الاقاليم الغربية من القارة الأوروبية ، والى الطبقة الوسطى بقايا الانسان التي وجدت فى أواسط القارة ، وأقدم من هذا بقايا الانسان التي وجدت فى القارة الآسيوية بين الصين وبلاد الملايا ، ومثلها فى القدم أو أقدم منها بقايا الانسان فى أقاليم الجنوب الأفريقية

وآخر البقايا الانسانية التي وجدت فى القارة الافريقية جمجمة ، وجدها الدكتور « ليكى » Leakey - فى شهر يوليو سنة ١٩٥٩ - ووجد معها بقايا حيوانات يظن الدكتور أن صاحب الجمجمة كان يصطادها لطعامه ، ويستخدم فى صيدها أسلحة حجرية وجدت آثارها على مقربة منه ، وقد استقرت هذه الحفائر تحت مجرى « أولدفاي » بتنجانيقا وسمى هذا الانسان باسم علمى معناه الانسان الزنجى *Zinjanthropus* ولقبوه فى الدوائر العلمية بلقب « كاسر الجوز » لضخامة فكاه وضروسه ، ويقدررون تاريخه بنحو ستمائة ألف سنة على حسب قياس الزمن بتلك المقاييس المتعددة ، ومنها حساب زمن التحجر وزمن تكوّن الطبقة وزمن التطور فى تركيب العظام وزمن البقايا التي تخلفت من عظام الفك والأسنان

وليس من المحقق أن يوغل الناريح فى القدم الى كل تلك الآلاف من السنين ، ولكن المحقق أن يغالها الى تلك الدهور كلها أو ما هو أقدم منها ليس بالأمر المستغرب فى أقيسة الزمن أو أقيسة أعمار الحياة الانسانية ، بعد وضوح الحقائق الثابتة عن قدم تاريخ الخليقة من ظواهرها الأرضية وظواهرها السماوية على السواء

والمحقق كذلك أن الانسان القديم الذى دلت عليه تلك البقايا ، كان يستخدم الآلات الحجرية ، ويستعين فى كفاح أعدائه من الحيوانات الضاربة بنصيب من الذكاء لم يكن معهودا فى حيوان منها ، فهو فى أقدم عهوده مميز بالعقل والنطق وهما صفتان انسانيّتان لا تنفصلان عن استخدام الآلة ولا عن الخاصة المميزة للحيوان الناطق من اعتدال القامة ومطاوعة اليد للإرادة فى حالات المشى والوقوف ، ولولا ذلك لما استطاع

الانسان أن يستخدم السلاح وأن يصنعه لاصابة الحيوانات الضارية من بعيد . .

* * *

أما الانسان في مجتمعات الحضارة فلم ينكشف ، بعد ، أثر يدل على تاريخ له قبل عشرة آلاف سنة أو نحوها ، ونعني بانسان الحضارة ذلك الانسان الذي عرف الشريعة ونظام المعاملة وسخر الحيوان كما سخر العناصر الطبيعية في مصالحه المشتركة . وقد وجدت في وادي النيل آثار الانسان المقيم الذي كان يستخدم الأدوات الحجرية ، ويعول على محاصيل الأرض في تدبير طعامه وأسباب معيشته ، ولكن المتفق عليه أن هذا الانسان لم يكن يعرف الكتابة ولم تكن نقوشه على الحجر من قبيل الرموز المصطلح عليها لنقل الأفكار وتسجيل الوقائع ، ولكنها أقرب الى الطلاسم السحرية أو الى أشكال الزينة ، وانها - على هذا - لتعتبر مقدمة لازمة نشأة المزايا التي تحقق الصلاح وتكفل لصاحبها الدوام في ميدان تنازع

* * *

وليس لنا أن نأخذ مأخذ اليقين بروايات الأقدمين عن ماضيهم البعيد في حياة الثقافة والحضارة الرفيعة ، ولكنها روايات لا تهمل في صدد الكلام عن تاريخ الانسان ، وليس لنا كذلك أن ننقضها بغير دليل

كان هيرودوت - الملقب بأبي التاريخ - يعيش في القرن الخامس قبل الميلاد ، وهو يروى في كتابه الثاني عن كهنة الفراعنة انهم يقدرون تاريخ الدولة من عهد ملكها الأول بثلاثمائة وواحد وأربعين جيلا ، أى بنحو أحد عشر ألف سنة على حساب ثلاثة أجيال لكل قرن واحد ، ويعتقد بعض الباحثين المحدثين أنه تقدير غير مبالغ فيه ، وأن مواقع بعض الهياكل تدل على انقضاء زمن كهذا الزمن قبل عصر هيرودوت في مراقبة فلكية سمحت بملاحظة الفرق بين السنة الشمسية في التقويم القديم وهذه السنة الشمسية في تقويمنا الحديث ، وهو فرق يبلغ سنة كاملة كل ألف وأربعمائة واحد وستين سنة ، ولا سبيل الى ادراك هذا الفرق في أمة تجهل الرصد

والتسجيل وتعجز عن مراقبة هذه الفروق دورا بعد دور في تاريخها الطويل (١)

* * *

ومما يذكر ، ولا يهمل ، في صدد الروايات المتواترة عن الأمم الدارسة رواية أفلاطون عن القارة المفقودة التي سماها القارة الأطلسية ، وذكرها في كتابين من كتبه المحفوظة هما كتاب « تيمائوس » Timaeus و « كريتاس » Critis وروى من أخبار أهلها أنهم تقدموا في الحضارة تقدما لم يدركه أحد من بعدهم ، ثم غاصت بأهلها تحت الأرض على أثر زلزال من زلازل العصور الغابرة التي يظهر من أخبار الأقدمين أنهم كانوا يحسبون أنها عوارض الطبيعة الدائمة أو عوارضها الدورية ، وقد بحث طلاب الأسرار في مجازل الماضي المدثور عن موقع القارة المفقودة فرجح عندهم أنها كانت في موضع المحيط الأطلسي بين شماله ووسطه ، وأنها زالت في أحاديث الكوارث الكونية التي قدروا لوقوعها سنة ٩٥٦٤ قبل الميلاد فلم يبق منها الا بعض الجزر البركانية

وقد كان أفلاطون أحد رواة هذه الأسطورة ، فلقيت من عناية الاخلاف اللاحقة ما لم تلقه أساطير عصره ، وجاء فرنسيس باكون فيلسوف العلوم التجريبية بعد القرون الوسطى فسمى أحد كتبه باسم الأطلسية الجديدة ، ووصف فيه العالم الجديد كما يتمناه

الا أن الغالب على المحدثين أن يتبعوا في هذه الرواية منهجهم « التقليدي » في كل رواية ، تخلفت من العصور الأولى وانتقلت الى العصور الأخيرة مع أساطير الأقدمين ، فحسبها جملة واحدة في عداد تلك الأساطير ، وهو منهج كانت له مسوغاته القوية في مرحلة الانتقال بين ظلمات القرون الوسطى ومطالع الكشف والتحقيق عند أوائل القرن التاسع عشر ، ولكن استقرار عصر الكشف والتجربة العلمية خليف أن يوطد الاقدام على بر الأمان ، ويسمح للباحث بالتردد في الإنكار كما سمح له من قبل بالتردد

(١) يرجع الى كتاب فيلوكونسكي Velikovsky عن العوالم المتصادمة

فى القبول ، بل بالتعجل الى الرفض بغير حجة ولا موازنة بين مسوغات التكنذيب ومسوغات التصديق ، ولعل الكشوف الكثيرة التى تعاقبت خلال القرن التاسع عشر وتبين منها أن روايات الأقدمين لم تكن كلها من قبيل الأساطير قد أقنعت أكثر الباحثين بأن الرفض بغير برهان أضر بالبحث من القبول بغير برهان ، لأن الذى يجزم برفض خبر قديم انما يحكم بالاستحالة على الممكنات الكثيرة التى تجوز ولا تمتنع فى العقول ، وخير منه - عقلا - من يقبل شيئا ممكنا ، وان لم يقد البرهان على وقوعه فعلا كما وقع غيره من الممكنات

واذا حق لهذه « الأسطورة » أن تشفع لها رواية أفلاطون ، فقد يكون من شفاعاتها الحديثة التى تزكى تلك الشفاعة الموقرة أن المحيط الأطلسى ينسب الباحثين المحدثين عن صدوع واسعة يدل عليها تقابل الخطوط بين شرائطه الشرقية وشواطئه الغربية ، وقد تدل عليها أغوار القاع وسلاسل المواقع المذهرة على امتداده طولا وعرضا بازاء قارات العالم القديم والعالم الجديد ، وهذه كلها كشوف متأخرة لم يعرف عنها الأقدمون شيئا حين تناقلوا أخبارهم عن قارتهم المفقودة

على أن الكشوف الأثرية فى السنوات الأخيرة قد خرجت بأساطير القارات المفقودة من عالم الاسرار الى عالم الآثار وطالعتنا باسم قارة جديدة فى محيط آخر غير المحيط الأطلسى ، ولكنه يقابله فى الموقع ويشبهه فى الظواهر والأغوار ، وتلك هى قارة « مو » Mu التى ألفت عنها الكولونيل جيمس شرشوارد Churchward كتابيه باسم « قارة مو المفقودة » و « أبناء مو » وروى فيهما أخبار حضارات سابقة لعصور التاريخ يرجع بها قدما الى أكثر من عشرين ألف سنة قبل الميلاد ، ويعزز دعواه برموز وإشارات يفسرها بمعانيها اللغوية ، ولا يقنع باعتبارها من أشكال الزينة ونقوش البناء ، لأنه يرى أن الرسوم الهندسية لا تبلغ هذا المبلغ عند أمة تجهل الكتابة ونقل الأفكار بالعلامات والخطوط

وعلى عهدة المؤلف ننقل خلاصة كتابه عن القارة المفقودة مقتبسة من مقدمته لكتابه الآخر عن « أبناء مو » وفيها يقول ما فحواه :

« ان قارة « مو » كانت قارة واسعة تقع فى المحيط الهادى بين أمريكا وآسيا ، ويقع وسطها الى الجنوب قليلا من خط الاستواء ٠٠ ويقدر طولها من الشرق الى الغرب بستة آلاف ميل ، وعرضها بين الشمال والجنوب بثلاثة آلاف ميل ، وقد دهمها زلزال عنيف قبل نحو اثنى عشر ألف سنة ، فابتلعتها لجج المحيط وغاص معها الى قراره نحو ستين مليون انسان ، ويستدل على وجود تلك القارة بالآثار الكتابية والروايات المتوارثة التى يتداولها أناس من أبناء الهند والصين وبورمة والتبت وكمبوديا وأواسط أمريكا ، ومنها نقوش ورقوم شوهدت فى جزر المحيط الهادى ، تؤيدها روايات الاغريق والمصريين الأقدمين وتتواتر حولها الأساطير بين بقاع الدنيا المترامية على أرجاء الكرة الأرضية . وقد خطا الانسان خطواته الأولى فى سبيل التقدم والمعرفة قبل نحو مائتى ألف سنة ، وانتهى قبل نكبة القارة بالزلزال الى شأو من الحضارة لم يصل اليه حتى الآن فى حضارتنا الراهنة ، لأن حضارتنا لا تدعى لها عمرا أطول من خمسة آلاف سنة وهى مرحلة قصيرة بالقياس الى الشأو الذى يدركه الانسان العاقل بعد ممارسة الحضارة والصناعة مائتى ألف سنة ، وليست حضارات الأمم الشرقية العريقة من الهند الى بابل ومصر آلا ومضات الرماد المتخلف من حضارة تلك القارة الغريقة ، وقد فسر المؤلف ما عثر عليه من الرموز والرقوم واعتمد فى بعض تفسيراته على كهان المحاريب البرهمية وعلى حلول الطلاسم التى انتهى اليها قراء الكتابات القديمة على آثار المغرب والمشرق ، ومنها آثار المايا وآثار الفراعنة ٠٠ ويقول المؤلف انه لم يأت برأى من عنده فى كل ما بسط القول فيه من أخبار تلك القارة ، ولكنه رأى ما يراه كل قارئ لتلك النقوش والرقوم يتقبل طريقة حلها كما شرحها مشفوعة بأسانيدها وبالأدلة التى تؤكد معانيها ، وقد ثبت له من تلك الأدلة أن بعضها يمتد فى الأزمنة الماضية الى سبعين ألف سنة ، ولكن الآثار التى نقلت من قارة « مو » نفسها جد قليلة ، وغاية ما أمكن العثور عليه من الآثار المتصلة بها آثاران رمزيان مصنوعان من البرنز ، يرجع

تاريخهما على الأقل الى نحو عشرين ألف سنة اذا كانا من مخلفات الحضارة التى بقيت على أرض القارة الآسيوية بعد الزلزال وقبل الطوفان ، وقد يرجع الى آماذ أبعد من ذلك جدا اذا كانا من مخلفات « مو » التى نقلت الى بلاد القارة الآسيوية . . . »

* * *

والجديد فى قصة هذه القارة كما رواها مؤلف كتابى القارة المفقودة وأبناء « مو » ، أنها تحدثنا عن الانسان « المتدين » فى تلك العصور السحيقة ، وأنها تصف لنا هذا الانسان « مخلوقا » مميزا بين جميع المخلوقات ، وتربط بين خاصة التدين وبين هذه المزية التى تفرده بين أنواع الأحياء ، على خلاف المفهوم من مذاهب النشويين الذين جعلوا الانسان نوعا من هذه الأنواع بغير مزية تفصله عنها سوى مزية الارتقاء ، وقد ألم المؤلف بمشابهات عارضة بين مجمل الكلام عن الخليفة ، وعن نكبات الانسان فى العصور الغابرة ، كما جاءت فى الآثار الأولى وفى كتب الأدیان الباقية ، وغاية من ما نقوله عن توكيدات المؤلف وتخميناته معا ان مسألة الانسان المتحضر قبل عصور التاريخ ليست مما يهمل فى سياق يعرض لتاريخ النوع الانسانى ولمكان الانسان من كتب الدين

الإنسان ومذهب التطور

القائلون بالتطور فرقتان : منهم من يعمم تطبيقه على الكون كله بما اشتمل عليه من مادة وقوة ، ومنهم من يقصره على عالم الكائنات العضوية التي تشتمل على النبات والحيوان والإنسان ، ولا تحيط بما عداها من الموجودات غير العضوية ..

والقائلون بالتطور العام يواجهون مسألة الخلق ، أو مسألة الإيمان بالخالق ، في كلامهم عن العالم وعن القوى المسيرة له من خارجه أو داخله ، ولا مناص لهم من التعرض لهذه القوى برأى من الآراء ..

فالذين يقصرون التطور على الأحياء ، يرجعون في تعليل تطورها إلى عوامل الطبيعة وما تشمله من مؤثرات البيئة والمناخ وموارد الغذاء ووسائل الحصول عليه ، ولا يضطرونهم القول بهذا التطور إلى التعرض لما وراء هذه العوامل الطبيعية بآثار أو إنكار .. فقد تكون عوامل الطبيعة في مذهبهم خاضعة لقوة عالية فوق الطبيعة ، تودعها ما تشاء من النظم والنواميس ، ولا يتناقض القول بالنظم الطبيعية عندهم والقول بما وراء الطبيعة ، على حسب العقائد الدينية أو المذاهب الفلسفية

أما تعميم التطور على الكون كله ، فلا بد أن يسبقه السؤال عن القوة التي تملك تسيير هذا الكون منذ الأزل إلى غير نهاية ، ولا بد للقائل بتعميم التطور من الفصل في مسألة البداية والنهاية .. وهي لا تنفصل عن مسألة الخلق والخالق في جملتها

فإذا كان تطور الأحياء يرجع إلى عوامل البيئة الطبيعية ، فماذا خارج الكون كله يرجع إليه تطور الكون منذ البداية الأولى ؟ وكيف يتفق القول بالتطور والقول بالأبدية التي لا أول لها ولا آخر إذا قيل إن الكون موجود بلا ابتداء ولا ختام ؟

ان أشهر القائلين بالتطور العام هربرت سبنسر (١٨٢٠ - ١٩٠٣) ،
الذى عرف التطور بأنه انتقال من البسيط الى المركب ، وقال عن تطور
الحياة أنه توفيق دائم بين مطالب البنية الحية وبين ظروفها الطبيعية ، ولهذا
يحدث التغير للبيئة ثم يحدث لها التوسع والامتداد ، وترقى في وظائفها
تبعاً لانتساعها وامتدادها ..

وقد عرضت له قضية البداية الأولى ، فلم يدخلها في حدود الطبيعة ولم
يخرجها من حدودها .. ولكنه قسم الحقائق الكونية الى قسمين بالنسبة
الى المعرفة الانسانية : أحدهما حقائق الأشياء في ذاتها وفي أصولها
الأولى وهي القسم الذى لا يدرك ولا يتقبل الإدراك بالأساليب العلمية ،
والآخر حقائق الأشياء في ظواهرها المحدودة وهي التى يستطيع عقل
الإنسان أن يدركها بالاستقراء والاستدلال ، ويظهر فيها عمل التطور
إما باستخراج الأحكام العامة من المشاهدات المتفرقة ، أو بتفسير هذه
المشاهدات على حسب تلك الأحكام

وأصحاب هذا رأى من القائلين بالتطور العام - على ترددهم فى
مسألة الأصول الأولى - لا يتجاهلون هذه الأصول ، ولا يفوتهم أن
القول بالتطور العام يوجب عليهم أن يرجعوا الى المؤثرات الكونية التى
تصدر منها الآثار المتغيرة وتفسر لنا أسبابها ، وان اطلاق القول بالتطور
من مبدأ الكون غير تخصيص التطور بالكائنات العضوية وتفسيره بالرجوع
الى العوامل التى تحيط بتلك الكائنات وتفعل فعلها أو تفعل معها
بمشاركتها ، ولكن أصحاب التطور العام على مذهب سبنسر يسلمون
بتلك المؤثرات الكونية ويتركون البحث فيها عجزاً عن الوصول الى
النتيجة ، فيقفون بالمعرفة الانسانية عند الآثار التى يدركونها ويحجمون
عما وراء ذلك ، فيسلكونه فى عداد « المجهولات » التى لا تدرك بالحواس
والعقول ..

ويبقى أصحاب التطور العام الذين لا يذهبون مذهب سبنسر فى تقسيم
المعرفة الانسانية بين مدرك وغير قابل للإدراك ، وهو قبل ذلك مذهب
الفيلسوف ألافوسى هاملتون (١٧٨٨ - ١٨٥٦) ومذهب الفيلسوف

الألماني عمانويل كانت (١٧٢٤ - ١٨٠٤) فى الظواهر والحقائق أو مبادئ الأشياء كما تحس وتدرك ، والأشياء فى ذاتها . .

فأصحاب التطور هؤلاء فريقان ، يقفان من مسألة الأصول الأولى موقفين متقابلين متناقضين . . وتفسير هذه الأصول عند أحدهما - وهو فريق المؤمنين - أنها من صنع الخالق الحكيم ، وإن القوة التى تصدر عنها آثار التطور فى الكون كله منذ بدايته لابد أن تكون « قدرة » فوق الطبيعة وفوق الكون تودعه ما تشاء من النظم والنواميس

والفريق الآخر - وهو فريق الماديين المنكرين - بكتفى من التفسير يذكر العوامل التى ينسب إليها التأثير واعتبارها طبيعة فى المادة لا تفسير لها إلا أنها وجدت هكذا ، ولا يمكن أن توجد على صورة أخرى غير التى وجدت عليها

فاذا احتاج الفيلسوف المادى الى القول بالحركة الدائمة ، قال انها عادة المادة فى أصل تكوينها ، واذا لزمه القول بالتغير مع الحركة قال ان المادة المتحركة متغيرة بطبيعتها ، واذا لزمه بعد ذلك أن يجعلها متغيرة من البساطة الى التركيب ومن النقيض الى النقيض . . فهذا القول عنده هو وصف للواقع وتفسير له فى وقت واحد ، وكذلك يفسر التقدم والارتقاء وهما يستلزمان الغاية المرسومة والنتيجة المقصودة ، ولكن الفيلسوف المادى يحسب أنه فرغ من التفسير بوضع كلمة « الضرورة » هنا موضع كلمة الغاية المقصودة . . وليس عند الفيلسوف المادى تفسير لهذا التعدد الهائل فى ظواهر الكون وأجزائه ، مع ابتداء تطوره من وقت واحد أو مبدأ واحد ، وجريان هذا التطور على مادة واحدة وقوة واحدة . . وليس عنده معنى لهذا التقدم أو غاية يتقدم إليها غير انقضاء أجل الكون مرة بعد مرة ، كلما انقضت دورة من دوراته الأبدية بين التأخر والتقدم ، أو بين الهبوط والارتقاء . .

وكل هذه الفلسفة المادية تتلخص فى كلمة تشبه كلمة الطفل حين تسأله عن سبب شئ فيقول لك « هكذا » بغير سبب ، أو تشبه كلمة الجاهل

الذى تسأله عما وقع أمامه فيقول لك : « وقع وحده » ولا تفهم منه علة لوقوعه أوضح من قول المادى الفيلسوف ان المادة تتغير لأنها متغيرة . وتتقدم لأنها متقدمة ، وتنتقل من البساطة الى التركيب ومن النقيض الى النقيض لأن ذلك كله من طبائعها . ولولا أن المادى الفيلسوف يقرر مذهبه فى التطور ليصل منه الى نتيجة فى المستقبل يوجبها على الناس وعلى الزمن لتساوى تفسيره للتطور العام وسكوته عن تفسيره . ولكنه لو اختار أن يتنبأ بنتيجة تناقض تلك النتيجة ، واختار أن يفسر ذلك أيضا بأنه طبيعة من طبائع المادة وطور من أطوارها لما كات حجته فى احدى النبوءتين بأقوى من حجته فى الأخرى

* * *

والقائلون بتطور الكائنات العضوية ، ممن يقصرون القول عليها ولا يعممون تطبيق التطور على جميع الكائنات بمليون - على الأغلب الأعم - الى القصد فى التفسيرات والتعليقات ، ويتجنبون البحث فى الأصول الأولى مكتفين من الأسباب بما يخضع للتجربة ويصلح للتقرير بأساليب العلم الطبيعى الحديث

وخلاصة مذهبهم أن أنواع الاحياء تتحول وتتعدد على حسب العوامل الطبيعية ، وانها ترجع جميعا الى أصل واحد أو أصول قليلة لعلها هي الخلايا البدائية .

وليس القول بتقارب الأنواع أو بتدرجها ، رأيا حديثا مجهولا قبل ظهور مذهب دارون أو مذاهب النشوئين العصريين على العموم ، ولكنه رأى قديم قال به فلاسفة اليونان وعرفه مفكرو العرب كما سنبينه فى فصل آخر من فصول هذا الكتاب ، وانما الجديد منه اسناده الى أسباب العلوم الطبيعية التى شاعت بين أواخر القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر ، وابتدأ القول به مع ابتداء البحث العلمى على مناهج العلماء المحدثين .

قال به العالم النباتى السويدى كارل لينوس (١٧٠٧ - ١٧٧٨)

Carl Linnaeus الذى عني بتصنيف الأنواع والاجناس فى دراسته للنباتات وبنى على هذا التصنيف رأيه فى أنواع الاحياء على التعميم

وقد كان لمباحث هذا العالم أثر واسع فى البيئة العلمية الانجليزية .
فانشىء المجمع اللينى فى لندن بعد وفاته بعشر سنوات ، نسبة اليه

وقال به بوفون العالم النباتى الفرنسى (١٧٠٧ - ١٧٨٨) Buffon
الذى ألث كتابه المنصل عن التاريخ الطبيعى بمعارضة الأستاذ درينتون
Daubenton وآخرين ، واتخذ من تصنيف أنواع النبات رأيا يمانله فى
تصنيف أنواع الحيوان .

وكان من المعاصرين لهذين العالمين اراسموس دارون Erasmus Darwin
(١٧٣١ - ١٨٠٢) جد دارون الذى ينسب اليه مذهب النشوء والتطور ،
فكان رائدا لحفيده فى القول بالتقارب بين الانسان والحيوانات العليا ،
وعاش معه فى عصره العالم الفقيه الايقوسى لورد منبودو (١٧١٤ - ١٧٩٩)
Lord Monboddo صاحب كتاب « أصل اللغة وترقيتها » وكتاب ما وراء الطبيعة
فى العصور القديمة ٠٠ « ومذهبه فى تطور الانسان ظاهر من بحثه عن
الأسباب الطبيعية لتطور اللغة ، وعن العلاقة بين الطبيعة وما وراء الطبيعة
عند الأقدمين ..

وتبين من المقابلة بين تواريخ ميلاد هؤلاء العلماء ، أن جو العلم الطبيعى
فى القارة الأوروبية من شمالها الى جنوبها كان قد تهيأ لدراسة الحياة
والاحياء على أساس الوحدة فى قوانين الطبيعة ، ولم يكن ذلك مقصورا
على السويد وفرنسا وانجلترا ، بل صح من روايات مؤرخى العلوم عند
الألمان والروس أن هذه الآراء وجدت من يقول بها على نحو من الأنحاء ،
وان كانت روايات هؤلاء المؤرخين لا تخلو من مداخلة الفخر بالسبق العلمى
بين الأمم الأوروبية

ولكن مذهب النشوء لم يعرف بتفصيله قبل العالم الفرنسى لامارك
(١٧٤٤ - ١٨٢٩) Lamarck ثم العالمين الانجليزيين : شارل دارون

(١٨٠٩ - ١٨٨٢) وزميله الفريد رسل والاس (١٨٢٣ - ١٩١٣) وعلى مباحث هؤلاء العلماء الثلاثة يقوم على أساس مذهب النشوء ، أو مذهب التطور ، بشقيه المقدمين فى اعتبار العلماء الى اليوم

وكل من لامارك ودارون ووالاس يقول بتحول الأنواع ، ويرد كثرتها الى نوع واحد أو أنواع قليلة ، ولكنهم لا يتفقون على أسباب التحول ولا على الصفات والوظائف التى تنتقل بالوراثة متى تغيرت فى تكوين الافراد ٠٠

ففى رأى لامارك ان أعضاء الجسم الحى تتغير بالاستعمال أو بالإهمال أو بطارىء من طوارئ المرض والاصابة ، وان الصفات المكتسبة التى تنولد من ذلك تنتقل بالوراثة ولا تزال تتباعد بين الأفراد حتى ينفصل كل منها بنوعه المستقل الذى لا يقبل التناسل مع غيره ، وقد ضرب المثل بالزرافة وافترض انها - لطول قوائمها - كانت تأكل طعامها من أطراف الشجر العليا ، وتعودت أن تمط عنقها كلما تجردت الفروع السفلى من أوراقها حتى بلغ غاية امتداده ، وثبت على هذا الطول فى أعقابها المتوالية

والنشوئيون الذين يرفضون القول بوراثة الصفات المكتسبة ، يستدلون على بطلان هذا رأى ببعض الصفات المكتسبة التى شوهدت منذ أجيال كثيرة ، ولم يشاهد لها أثر وراثى فى الأجنة والمواليد ، ومنها أن نساء بورما تعودن منذ أجيال أن يطلن أعناقهن بالأطواق العريضة يضعن طوقا منها فوق طوق حتى تبلغ من الطول غاية الاحتمال ، ولا تزال بناتهن يولدن بأعناق لا تزيد فى طولها على أعناق البنين الذكور ، ومنها أن عادة الحثان عند اليهود لم تعقب أثرا وراثيا بعد استمرارها منذ ثلاثين قرنا أو تزيد ، ويشاهد مثل ذلك فى ذرية الحيوان الداجن التى تعود المدجنون له أن يقطعوا أذنا به أو يستأصلوا بعض أعضائه ، فانها تولد بأعضاء كأعضاء آبائها وأمهاتها بعد انقضاء عدة أجيال على تدجينها

ويرى النشوئيون الذين يقولون بوراثة الصفات المكتسبة أن قصر الزمن الذى مر على هذه المشاهدات - بالقياس الى الآماد الطوال التى

مرت على تطور الأنواع الحيوانية - لا يكفي للجزم بامتناع الوراثة على إطلاقها ، وإن إهمال الأعضاء بالقطع ليس من شأنه - ضرورة - أن يورث ولو طال عليه الأمد ، لأن المقصود بالاهمال ما يحدث أثرا في قوام البنية الباقية أو ينشأ عن حدوث هذا الأثر فيها

ويلجأ النشوئيون - على رأى دارون ووالاس - الى تعليل آخر لحدوث التحول فى الأنواع ، فيعملونه بالانتخاب الطبيعى والانتخاب الجنسى . مع القول بتنازع البقاء لزيادة الوليد الحية على الموارد الكافية لتغذيتها ووقايتها ..

فالزرافة - عندهم - لم تنقل صفة مكتسبة الى ذريتها ، ولكن أفراد الزراف ولدت قديما وفيها تفاوت فى الصفات كما يتفاوت الأفراد فى جميع الأنواع ، وبقي أطولها عنقا لأنه استطاع أن يبلغ أعالي الشجر حيث يقل الطعام ويقصر غيره من أفراد الزراف عن بلوغه ، وهنا يعمل الانتخاب الطبيعى عمله فتبقى ذرية الزراف الطوال العنق وينقرض ما عداها ، ويعمل الانتخاب الجنسى عمله - مع الانتخاب الطبيعى - لأن الأفضل من ذكور الحيوان واثاته يفضل على غيره عند الجنس الآخر ، فيعقب كلا الجنسين المفضلين ذرية تشبهه فى الامتياز على سائر الأفراد

وليس مثل الزرافة فى رأى دارون بأسعد حظا من هذا المثل فى رأى لامارك ، لأن المعارضين عليه يقولون ان قلة الورق على فروع الشجر السفلى يببىد صغار الزراف كما يببىد أنواع الحيوان التى تعيش مثله على العشب أو على الشجر القصار ، وإن ذكور الزراف أطول أعناقا - فى الغالب - من اناثه ، فهى خليفة ان تفنى مع غيرها من الزراف القصار الأعناق ..

الا أن الأكثرين من النشوئيين يعتبرون هذا الخطأ سوء تمثيل من دارون ، ولا يجعلونه سببا كافيا لبطلان القول بالانتخاب الطبيعى .. فلو أن دارون نظر الى مزية القوائم الطوال ، ولم ينظر الى مزية العنق الطويل لأمكن تعليل بقاء الزراف الممتاز بالقدرة على الجرى بفعل الانتخاب

الطبيعى والانتخاب الجنى فى وقت واحد ، لأنه يعلت من مطارديه ويسبق سائر الزراف الى أماكن المرعى كلما اضطرتة ندرة المرعى الى الانتقال من مكان الى مكان . وقد صبح تمثيل دارون بأنواع شتى من الحيوان غير نوع الزراف فلم يصادفه فيها مثل هذا الاعتراض

وبعد المنازلة بين الرأيين - رأى لامارك ورأى دارون ووالاس - يتضح انهما ينتهيان الى نتيجة متشابهة ، وهى ضرورة القول فى النهاية بوراثنة الصفات المكتسبة على طول الزمن ، فان لم تنتقل بعد اكتسابها فى حياة فرد واحد فىى منتقلة بعد التجمع والتمكن من فرد الى فرد يتم بينهما التوارث فجأة أو على أثر التدرج البطيء ، ولم يكن فى ذهن دارون فرض معلوم غير طول الزمن يوم خالف النشويين من قبله فى تعليله لتحول الأنواع ، وكل ما هنالك ان دارون جرى على عادته من اجتناب الأحكام الايجابية كلما أمكن تعليل الظواهر المجعولة بالعدل السلبية ، فهو يقول ان الأنواع تبقى لأن أسباب الانقراض عجزت عن ابادتها ، بدلا من القول ، بمؤثرات معينة تخلق الصفات وتؤدى الى انتقالها بالوراثة ، وتكاد آراؤه فى تنازع البقاء وفى الانتخاب الطبيعى والانتخاب الجنى ، أن تنهى الى نتيجة واحدة ، وهى أن الاحياء بقيت لأنها لم تنقرض ، وأن أسباب الفناء عجزت عن ابادتها كما ابادت غيرها . وهذه العادة الذهنية هى فى وقت واحد مصدر القوة ومصدر الضعف فى تفكير دارون وفى هذا الضرب من التفكير على عمومه . فانها دليل على الأمانة الفكرية التى تحجم عن تقرير حكم معين قبل ثبوته والاحاطة بحقيقته ، وهى كذلك موضع النقص الظاهر لأن العوامل السلبية لا تقوم عليها دلائل الخلق والانشاء ، وان قامت عليها أحيانا دلائل الزوال الذى يفيد زوال فريق وسلامة فريق .

وقد كان خطأ النشويين فى تقرير مسألة الوراثة نقصا لازما لمباحث العلم الطبيعى فى القرن التاسع عشر ، أيا كان رأى العالم الذى يقرر هذه المسألة ، لأن أسرار الوراثة لم تعرف قبل تقدم علم الناسلات (أو الجينات)

Genetics وظهور فعل الناسلة Gene والصبغية Chromosome في نفل. الخصائص والفوارق الفردية من الآباء والأمهات الى الأبناء ٠٠ فكل صفة لا تكمن في الناسلة ولا تحتويها صبغية من صبغياتها فهي صفة عارضة لا تنتقل الى الذرية بالوراثة ، ويقول الأستاذ نيفيل جورج - أحد ثقات هذا العلم - ان الانتخاب الطبيعي - لأجل هذا - لا يصلح لتعليل مذهب النشوء أو مذهب التطور ، لأنه يعلل زوال غير الصالح ولا يعلل نشأة المزايا التي تحقق الصلاح وتكفل لصاحبها الدوام في ميدان تنافس البقاء ، تم تفتح الباب لعمل الانتخاب الطبيعي في المستقبل عند التفاوت في تلك المزايا الموروثة بين الأفراد ٠ وانما تنشأ هذه المزايا بعمل من أعمال الطفرة Mutation يكفي لاحداث التغيير المطلوب في الناسلة وفي صبغياتها التي تنقل تلك المزايا بالوراثة ، وقد أمكن العلم بالخواص التي تنقلها كل صبغية من الصبغيات في بعض أنواع النبات والحيوان ، وأمكن التأثير في الصبغية بفعل العقاقير أو الأشعة السينية ، ويقال ان الأشعة الكونية تفعل هذا الفعل اذا نفذت الى بذور النبات والحيوان ، وبها يعللون التحول المفاجيء كما يعللون الاختلاف الطارئ على النبات في الألوان والأحجام والأشكال ٠٠

وتجرى تجارب الأشعة الآن لاحداث التحول الموروث في أنواع من الذباب والفراش ، وقد تؤدي التجربة فعلا الى ظهور خاصية في الحشرة تغير ذريتها فتخالقها بعض المخالفة ويثبت الاختلاف بعد ذلك على سنن الوراثة المعروفة بالمندلية ، نسبة الى « مندل » صاحب التجارب المشهورة في وراثة الحبوب ٠ ومن هذه التجارب تجربة تأثير الأشعة السينية على ذباب الفاكهة المعروف باسم « الدرسفيلة » Drosophila ٠٠ فان تعريض الذبابة منه للأشعة يغير ذريتها ، فتأتى مخالفة لها في لون العين أو في طول الجناح ٠ ويثبت هذا الاختلاف بعد ذلك في أجيالها المتعاقبة على السنة المندلية المقررة لتنظيم خطة الوراثة على نسق معروف من الأعقاب الى الأعقاب ٠٠

، ويتجدد الآن سؤال قديم ملازم لفكرة النشوء منذ انتشار مذهبيه قبل تقديم علم النسابات : فما هو مدى سريان التطور على الجنس البشرى ؟ هل هناك حد فاصل بين البشرية والحيوانية ؟ وإذا أمكن غدا تحسين أنواع الحيوان بمعالجة النسابات ، فهل يمكن استخدام هذه الوسائل فى تحسين صفات الانسان الفكرية والروحية ؟ ..

ان النشوئين قد تساءلوا عن هذا الفاصل ، منذ قرروا آراءهم عن التطور على قواعد العلوم التجريبية ، وأجابوا عنه اجاباتهم على حسب عقائدهم مرة وعلى حسب أمتجتهم مرة أخرى

فالعالم الفرنسى بوفون يقرر أن تقسيم الأنواع يتناول الانسان من جانبه الحيوانى ، ولا يعرض لجوانبه المميزة له فى عقائد المؤمنين ، ودارون يقول انه يتكلم عن الأطوار التى تؤثر فى جسد الانسان ولا شأن له بما عدا ذلك من الملكات الروحية التى يقررها له الدين . وهذه الأجوبة من النشوئين ليست بالأجوبة الحديثة فى بابها على ذلك السؤال القديم . فان ابن سينا - مثلا - كان يقرر مذهب الطب فى الأمراض التى تنسب الى فعل الجان والأرواح الخبيثة أو الطيبة ، فيقول انه لا ينبغى هذا الفعل ولكنه ينظر الى آثاره الجسدية فيرى أنها تحدث الأعراض التى يعالجها بعلاجها الطبى الموصوف لها عند الأطباء

وليس النشوئيون جميعا على منهج بوفون ودارون أو منهج ابن سينا وأصحابه من علماء الزمن القديم ، فان بعض علماء النشوء المحدثين - وعلى رأسهم ارتست هكل - ينكرون كل نسبة للانسان غير نسبته الى أنواع الحيوان ، ويجعلون لهذه النسبة شجرة تجمع بينه وبين القردة العليا وتنزل فى جذورها الى القردة المذنبة التى تعيش فى أمريكا الوسطى وأمريكا الجنوبية Marmosets وقلما تحتل الجو فى الأقاليم الشمالية ، ومن دونها الليمور Lemur قرد مدغشقر ، وهو موضوع فى شجرة النسب دون قردة « المرموز » الأمريكية

ويرتب النشوئيون القردة العليا - صعدا - من الجيبون الى الأورانج ،

الى الشمبانزى ، الى الغوريلا ، وقد يفرقون بينها فى درجات الرقى بحسب اعتمادها على تسلق الأشجار أو المشى على أديم الأرض والقدرة على الوقوف واعتدال القامة عند السير على قدمين . فإدناها ما كان اعتماده كله على التسلق ومعيشته كلها فوق الأشجار ، وأعلاها ما استغنى عن تسلق الأشجار واحتاج الى استخدام يديه وهو ماش على قدميه ، فان نمو الدماغ مرتبط بدرجة اعتدال العمود الفقرى وعظام العنق ودرجة التصرف باليدين عن قصد وإرادة لتحقيق عمل من الأعمال ، ويزعم هؤلاء النشويون ان « التطور » الانسانى له علامات تبدأ من قردة الليمور وقردة المرموز المذنبة ، وتندرج - صعودا - الى الانسان حيث يزول الذنب وينمو الدماغ وتتحول اليد الى أداة صالحة للتناول غير مقصورة على المشى أو التعلق بفروع الأشجار . ومجمل تلك العلامات أنها بوادر الجلوس والوقوف واختفاء الذنب ومخالبة القدمين واليدين

ويذهب أحد النشويين المحدثين الى القول بأن نوع الانسان سابق لأنواع القرده بمئات الألوف من السنين ، وإن القرده العليا أناسى ممسوخة فقدت أوائل الصفات البشرية ، وانحدرت فى الصفات العقلية والجسدية الى مادون تلك المرتبة بكثير أو قليل .

وصاحب هذا رأى هو الدكتور هرمان كلاتش Klaatsch الذى كان يدرس علم الانسان بجامعة برسلو قبل الحرب العالمية الأولى ، وعنده أن انسان جاوه الذى وجدت بقاياها المتحجرة وأطلق عليه العلماء اسم Pithecanthropus هو المرتبة الوسطى التى صعد منها خلفاؤها الى ما فوقها وهبط منها الخلفاء الآخرون الى مادونها ، ويزعم « كلاتش » أن الانسان ينتمى الى أصول متعددة ، ولا ينجم كله من أصل واحد . فالمغوليون وقرود الأورانج من أصل واحد ، وزنوج افريقية والشمبانزى والغوريلا من أصل آخر ، ولكنه زعم لا تؤيده المقابلة بين هذه الأحياء فى الخصائص التشريحية .

* * *

ومن المفارقات ان هؤلاء النشويين النسابين لم يبلغوا بالفرد ذلك

الشبه الذى تصورته طائفة من الأقدمين قبل انتشار القول بالتطور واشتباك الأنواع والأجناس ٠٠ فان تلك الطائفة من الأقدمين تصورت أن جميع القردة أناسى ممسوخون عقلت ألسنتهم وبقيت لهم أفهامهم ، وليس بينهم وبين الناس من فارق غير الفارق الذى يبعد بين الكائنات المشوهة والكائنات السوية من أصل واحد ، ولكن شجرة النسب تحتاج الى علم التشريح لالتقاط المشابهة التى ترجح القول بوحدة الأصول الجسدية بين الانسان وبين أقوم الخلائق من أنواع الحيوانات العليا ٠٠

يقول آرثر كيث - من أكبر النشويين المتأخرين - فى كتابه شجرة نسب الانسان : « ان الأستاذ وود جونس لفت النظر الى بقاء علامات كثيرة فى تركيب الانسان قد اختفت من تراكيب القردة العليا وعامة القردة ، وان هذه القردة العليا وسائر القردة قد احتفظت بعلامات شتى زالت من تركيب الانسان ، ولست أرى أن هذه الشذوذات تستدعى تعديل شجرة النسب التى رسمتها هنا ، ولكنى أرى أن تفسيرها ينبغى أن يلتمس فى زيادة العناية بفهم قوانين الوراثة ، فان الكائنات الحية أشبه بأشكال الفسيفساء المتداخلة ينتقل بعض أنماطها بالوراثة ويختفى غيرها ٠٠ فالغوريلا تولد فى أكبادها الفصيصات التى تتولد فى أكباد القردة ، بينما تقترب كبد الأورانج أشد الاقتراب فى تركيبها المتناسك من كبد الانسان ، ولكننا ينبغى أن نفترض أن هذين الحيوانين تحدرتا منذ عهود بعيدة من سلف مشترك يشبه تركيب كبده تركيب كبد الجيبون »

ثم يستطرد الى بيان الشبه بين الانسان والقردة الافريقية فيقول : « ان الانسان له على جانبى تجويفه الأنفى سلسلة من الجيوب تسمى بأسماء العظام التى تجاورها ٠٠ ولا يسعنا أن نعتقد أنها تتولد على حدة فى نوعين من الحيوان ، ويوجد هذا النمط الانسانى فى كل من الشمبانزى والغوريلا ، وان كانت الجيوب فى الغوريلا وحدها قد اتخذت لها نمطا آخر ، ومن الجائز أن نمطا آخر كان موجودا فى أنف سلف الأورانج ويصعب التحقق منه بعد انكسار تركيب الأنف كله فى هذا العضو الكبير من أعضاء الحيوانات القردية العليا ٠٠ وقد عرف أن دم الغوريلا ودم الشمبانزى أقرب استجابة الى الانفعال بدم الانسان من جميع الفقاريات ٠٠ وتبلغ

العلامات المشتركة بين الانسان وكل من الشمبانزى والغوريلا نسبة الى سائر العلامات التى أحصيتها تقدر بثمانية وسبعة أعشار فى المائة ، ولهذا أتوقع أن بقية من بقايا المتحجرات تنكشف يوما فى افريقية نعتبر السلف المشترك بين الغوريلا والشمبانزى والانسان »

هذه هى العلامات التشريحية التى انتهى اليها أصحاب شجرة النسب من النشويين المتأخرين ، وما عداها من العلامات ووجوه الشبه لا يعدو أن يكون إعادة لتصوير المشابه العامة التى يلمحها النظر لأول وهلة بغير حاجة الى تشريح الأعضاء ، وقد أحصاها الأستاذ « شابمان بنشر » Pincher فى كتابه عن تعليل التطور ، ثم عقب عليها قائلا : « انه لا احتمال لتسلسل الانسان من القردة كما نعرفها ، لأن القردة منفردة بتركيب خاص يستحيل تشريحيًا أن يتطور منه تركيب الانسان ، اذ كان الانسان قد نما له خلال مليون سنة دماغ أكبر وقامة أقوم ويد - فوق هذا وذاك - أصلح للتناول والتصرف بالاستعمال »

وهذا الفاصل الحاسم هو قصارى مدى الاقتراب بين النوع البشرى وسائر أنواع الأحياء بمقياس التطور وعلم الوراثة ، يعبر عنه النشوي فيقول انه سبق مليون سنة ، ليلحق به مدى الفارق الروحي فى تعبير الدين

التطور قبل مذهب التطور

ان اختلاط الأنساب بين أنواع الحيوان خاطر قديم توارثه الأقدمون من أزمئة مجهولة ، وندرت أمة من أمم السلف البعيد لم تتوافر فيها الأخبار والاساطير عن التناسل بين أنواع الحيوان أو بين الانسان والحيوان ، أو بين الانس والجن ، أو بين الانس وأرباب الأساطير المشبهين بالانسان . ومرد هذه الأخبار والأساطير - على الأكثر - الى جهل الأوائل بوظائف الأعضاء ، وجهلهم بالشروط الحيوية التي تلزم للحمل والولادة وامكان التناسل بين الأزواج المستعدة للتناسل فى النوع الانساني فضلا عن سائر الأنواع ، فكل ما يلد من نوعه صالح عندهم للتوليد من أنواع الأحياء

وقد سبق القول بالتطور وتدرج الكائنات ، كما سبق القول بتحول الأنواع وتناسلها ٠٠ ولكن لعل غير تلك العلة ، مردها - على الأرجح - الى المفاضلة والترتيب بين الكائنات على حسب حظها من الحياة أو من مشابهة الأحياء ٠٠ ثم نشأت علوم الكيمياء والطب والزراعة ، فكان للعلم عمله فى التفرقة بين المواد الكيمية المعدنية والنباتية والحيوانية ، واشترك الأحياء وغير الأحياء فى مباحث الكيمياء ، ثم جاءت فى مباحث المتأخرين مقابلة الكيمياء العضوية بالكيمياء غير العضوية

ومما يشبه القول بتطور الكائنات وتدرجها قول الفارابى فى شرحه لأقوال المعلم الأول من كتاب « آراء أهل المدينة الفاضلة » ان « ترتيب هذه الموجودات ، هو أن تقدم أولا أحسها ، ثم الأفضل فالأفضل ، الى أن تنتهى الى أفضلها الذى لا أفضل منه ، فأحسها المادة الأولى المشتركة والأفضل منها الاسطقسات ثم المعدنية ثم النبات ثم الحيوان غير الناطق ، وليس بعد الحيوان الناطق أفضل منه »

ويذهب الفارابى على هذا الترتيب فى التفرقة بين الانسان والانسان ،

بمقدار حظه من القوة الناطقة ، فيجيز أن يكون بعض أشباه الآدميين بالصورة الجسدية غير محاسبين أو غير أهل للحياة الأخرى

ويقول الكتبي (١) وهو يتكلم عن طبائع القرد : « ان هذا الحيوان عند المتكلمين في الطبائع مركب من انسان وبهيمة ، وهو من تدرج الطبيعة من البهيمة الى الانسان »

ويقول القزويني صاحب « عجائب المخلوقات » بعد تقسيمه الأجسام الى نام وغير نام ، وهو ما يقابل اليوم تقسيمها الى العضوى وغير العضوى ، ان « أول مراتب هذه الكائنات تراب وآخرها نفس ملكية طاهرة ، فان المعادن متصلة أولها بالتراب أو الماء وآخرها بالنبات • والنبات متصل أوله بالمعادن وآخره بالحيوان ، والحيوان متصل أوله بالنبات وآخره بالانسان ، والنفوس الانسانية متصلة أولها بالحيوان وآخرها بالنفوس الملكية •• »

وهذا الانتقال من المشابهة بالجسد الى المشابهة بالنفس شبيهة باحتراس النشويين المحدثين عند التفرقة بين الانسان من جانبه الحيوانى والانسان من جانبه الروحى أو جانب القوى الأدبية الوجدانية ••

ويقول اخوان الصفاء فى رسالتهم العاشرة : « اعلم يا أخى ان أول مرتبة النباتية أو دونها مما يلى التراب هى خضراء الدمن ، وآخرها وأشرفها مما يلى الحيوانية النخل ، وذلك لأن خضراء الدمن ليست بشيء سوى غبار يتلبد على الأرض والصخور والأحجار ، ثم يصيبها المطر فتصبح بالغداة خضراء كأنه نبت زرع وحشائش ، فاذا أصابها حر الشمس نصف النهار تجف ثم تصبح بالغد مثل ذلك من نداوة الليل وطيب النسيم ، ولا تنبت الكماة ولا خضراء الدمن الا فى أيام الربيع فى البقاع المتجاورة لتقارب ما بينها •• وأما النخل فهو آخر مرتبة النبات مما يلى الحيوانية ، وذلك

(١) محمد بن شاذان بن عبد الرحمن الكتبي الداراني • ولد فى دارية من قرى دمشق وتوفى سنة ٧٦٤ واشتهر بكتبه المطبوعة « فوات الوفيات »

أن النخل نبات حيواني لأن بعض أحواله وأفعاله مباين لأحوال النباتات وإن كان جسما نباتيا ٠٠ وفي النبات نوع آخر فعله أيضا فعل النفس الحيوانية ، وإن كان جسمه جسما نباتيا وهو الأكشوت ، وذلك إن هذا النوع من النبات ليس له أصل ثابت في الأرض كما يكون لسائر النبات . ولا له ورق كأوراقها بل هو يلتف إلى الأشجار والزرور والبقول والحشائش ويمتص من رطوبتها ويتغذى كما يفعل الدود الذي يدب على ورق الأشجار وقضبان النبات ٠٠ وإن أدون الحيوان وأنقصه هو الذي ليس له إلا حاسة واحدة وهو الحلزون ، وهي دودة في جوف أنبوبة تنبت في تلك الصخور التي تكون في بعض سواحل البحار وتضطوط الانهار ، وتلك الدودة تخرج نصف شخصها من جوف تلك الأنبوبة ، وتنسبط يمين ويسرة تطلب مادة تغذى بها جسمها ، فإذا أحسست رطوبة ولينا انبسطت إليه وإن أحسست بخشونة أو صلابة انقبضت وغاصت في جوف تلك الأنبوبة حذرا من مؤذ لجسمها ومفسد لهيكلها ، وليس لها سمع ولا بصر ولا شم ، إلا ذوق اللمس حسب . وهكذا أكثر الديدان التي تكون في الطين في قعر البحر وعمق الأنهار ليس لها سمع ولا بصر ولا ذوق ولا شم ، لأن الحكمة الالهية لم تعط الحيوان عضوا لا يحتاج إليه في وقت جر المنفعة أو دفع المضرة ، لأنه لو أعطاها ما لا تحتاج إليه لكان وبالاً عليها في حفظها وبقائها . فهذا النوع حيواني نباتي لأنه ينبت جسمه ، كما ينبت بعض النبات ، ومن أجل أنه يتحرك بجسمه حركة اختيارية فهو حيوان ، ومن أجل أنه ليس له إلا حاسة واحدة فهو أنقص الحيوانات رتبة ، وتلك الحاسة أيضا هي التي يشاركها النبات فيها وذلك أن النبات له حس اللمس حسب »

ويقول ابن مسكويه من علماء القرن الرابع والخامس للهجرة في كتابه تهذيب الأخلاق بعنوان الأجسام الطبيعية : « إن الأجسام الطبيعية كلها تشترك في الحد الذي يعمها ثم تتفاضل بقبول الآثار الشريفة والصور التي تحدث فيها ، فإن الجماد منها إذا قبل صورة مقبولة عند الناس صار بها أفضل من الطينة الأولى التي لا تقبل تلك الصورة . فإذا بلغ إلى أن يقبل صورة النبات صار بزيادة هذه الصورة أفضل من الجماد ، وتلك

الزيادة هي الاغتذاء والنمو والامتداد في الاقطار واجتذاب ما يوافقه من الأرض والماء وترك ما لا يوافقه ونفض الفضلات التي تتولد فيه من جسمه بالصموغ ، وهذه هي الأشياء التي ينفصل بها النبات من الجمد ، وهي حال زائدة على الجسمية التي حددناها وكانت حاصلة في الجمد ، وهذه الحالة الزائدة في النبات التي شرف بها على الجمد تتفاضل ، وذلك أن بعضه يفارق الجمد مفارقة يسيرة كالمرجان وأشباهه ، ثم يتدرج فيها فيحصل له من هذه الزيادة شيء بعد شيء . فبعضه ينبت من غير زرع ولا بذر ولا يحفظ نوعه بالثمر والبذر ، ويكفيه في حدوثه امتزاج العناصر وهبوب الرياح وطلوع الشمس ، فلذلك هو في أفق الجمادات وقريب الحال منها . ثم تزداد هذه الفضيلة في النبات ، فيفضل بعضه على بعض بنظام وترتيب حتى تظهر فيه قوة الاثمار وحفظ النوع بالبذر الذي يخلف به مثله ، فتصير هذه الحالة زائدة فيه ومميزة له عن حال ما قبله . ثم تقوى هذه الفضيلة فيه حتى يصير فضل الثالث على الثاني كفضل الثاني على الأول ، ولا يزال يشرف ويفضل بعضه على بعض حتى يبلغ الى أفقه ويصير في أفق الحيوان ، وهي كرام الشجر كالزيتون ، والرمان ، والكرم ، وأصناف الفواكه . الا أنها - بعد - مختلطة القوى ، أعنى أن قوى ذكورها ، وأنثائها غير متميزة ، فهي تحمل وتلد المثل ولم تبلغ غاية أفقها الذي يتصل بأفق الحيوان . ثم تزداد وتمعن في هذا الأفق الى أن تصير في أفق الحيوان فلا تحتمل زيادة . وذلك انها ان قبلت زيادة يسيرة ، صارت حيوانا وخرجت عن أفق النبات . فحينئذ تتميز قواها ويحصل فيها ذكورة وأنوثة وتقبل من فضائل الحيوان أمورا تتميز بها عن سائر النبات والشجر ، كالنخل الذي طالع أفق الحيوان بالخواص العشر المذكورة في مواضعها ، ولم يبق بينه وبين الحيوان الا مرتبة واحدة وهي الاطلاع من الأرض والسعى الى الغذاء . وقد روى في الخبر ما هو كالاشارة أو كالزمر الى هذا المعنى وهو قوله صلى الله عليه وسلم :

« أكرموا عما تكلم النخل ، فانها خلقت من بقية طينة آدم »

ويستطرد ابن مسكويه الى ذكر الحيوان بما يشبه قول المحدثين عن أسلحة الحيوان في تنازع البقاء ، فيقول ان الحيوان : « ان كان ضعيفا لم

يعطى سلاحا البتة ، بل أعطى آلة الهرب كشدة العدو والقدرة على الحيل التى تنجيه من مخاوفه . وأنت ترى ذلك عيانا من الحيوان الذى أعطى القرون التى تجرى له مجرى الرماح ، والذى أعطى الأنياب والمخالب التى تجرى له مجرى السكاكين والخناجر ، والذى أعطى آلة الرمى التى تجرى له مجرى النبل والنشاب ، والذى أعطى الحوافر التى تجرى له مجرى الدبوس والطبزين . فأما ما لم يعط سلاحا لضعفه عن استعماله ولقلته شجاعته ونقصان قوته الغضبية ، ولأنه لو أعطيه لصار كلا عليه ، فقد أعطى آلة الهرب والحيل بجودة العدو والخفة والختل والمراوغة كالأرانب وأشباهها . . . فأما الانسان فقد عوض من هذه الآلات كلها بأن هدى الى استعمالها كلها . . .

تم يتدرج الى أقرب الحيوان الى الانسان ، وهو « الذى يحاكي الانسان من تلقاء نفسه ويتشبه به من غير تعليم كالقردة وما أشبهها ، ويبلغ من ذكائها أن تستكفى فى التأدب بأن ترى الانسان يعمل عملا فتعمل مثله من غير أن تحوج الانسان الى تعب بها ورياضة لها . وهذه غاية أفق الحيوان التى ان تجاوزها ولو زيادة يسيرة ، خرج بها عن أفقه وصار فى أفق الانسان الذى يقبل العقل والتمييز والنطق والآلات التى يستعملها والصور التى تلائمها . . .

« ولا يقف التدرج عند أفق الانسان ، بل يتفاضل الناس بين أهم لا تتميز عن القروء الا بمرتبة يسيرة ، وأمم تتزايد فيهم قوة التمييز والفهم الى أن يصيروا الى وسط الأقاليم فيحدث فيهم الذكاء وسرعة الفهم والقبول للفضائل ، وإلى هذا الموضوع ينتهى فعل الطبيعة التى وكلها الله عز وجل بالمحسوسات ، ثم يستعد بهذا القبول لاكتساب الفضائل واقتنائها بالارادة والسعى والاجتهاد الذى ذكرناه فيما تقدم ، حتى يصل الى آخر أفقه . . . فإذا صار الى آخر أفقه اتصل بأول أفق الملائكة ، وهذا أعلى مرتبة الانسان . . . عندها تتأحد الموجودات ويتصل أولها بآخرها ، وهو الذى يسمى دائرة الوجود ، لأن الدائرة هى التى قيل فى حدها أنها خط واحد يبتدىء بالحركة من نقطة وينتهى اليها بعينها . ودائرة الوجود هى المتأحدة التى جعلت الكثرة وحدة ، وهى التى تدل دلالة صادقة برهانية على موجدتها وحكمته وقدرته ووجوده ، تبارك اسمه وتعالى جده وتقدس ذكره »

الى أن يقول مخاطبا طالب المعرفة : « وحدث لك الايمان الصحيح وشهدت ما غاب عن غيرك من الدهماء ، وبلغت أن تتدرج الى العلوم الشريفة المكونة التي مبدؤها تعلم المنطق ، فانه الآلة في تقويم الفهم والعقل الغريزي ثم الوصول به الى معرفة الخلائق وطبائعها ثم التعنى بها والتوسع فيها والتوصل منها الى العلوم الالهية ، وحينئذ تستعد لقبول مواهب الله عز وجل وعطاياه ، فيأتيك الفيض الالهي ، فتسكن عن قلق الطبيعة وحركانها ندم الشهوات الحيوانية ونلحظ المرتبة التي ترقيت منها أولا فأولا من مراتب الموجودات ، وعلمت أن كل مرتبة منها محتاجة الى ما قبلها في وجودها ، فعلمت أن الانسان لا يتم له كماله الا بعد أن يصل الى ما قبله ، واذا صار انسانا كاملا وبلغ غاية أفقه أشرق نور الأفق الأعلى عليه ، وصار أما حكيما ناهما تأتيه الالهامات فيما يتصرف فيه من المحاولات الحكيمة والتأبيدات الطبيعية في التصويرات العقلية ، وأما نبيا مؤيدا يأتيه الرحي على ضرب من الأزل التي تكون له عند الله تعالى ذكره ، فيكون حينئذ واسطة بين الملا في الدنيا والملا الأسفل .. ولذلك تكثر حاجات الناس الى المقومين والمنفعين .. »

وفسرى كلام ابن مسكويه أن الترقى الطبيعي ينتهى الى غاية وسع الطبيعية من ترقية الجسد واتمام حسه وأعضائه ، ثم يبدأ الترقى بالعقل والخلق من أبن الحيوان الى ما هو أعلى وأرفع وأقرب الى الملا الأعلى ..

ولابن مسكويه بحث كهذا في كتابه « ألفوز الأصغر » يبدأ فيه من البداية ، وهي ما سماه بالمركز فيقول : « ان أول أثر ظهر في عالمنا هذا من نحو المركز بعد امتزاج العناصر الأولى - أثر حركة النفس في النبات ، وذلك أنه تميز عن الجماد بالحركة والاغذاء ، وللنباتات في قبول الأثر مراتب مختلفة لا تحصى ، الا أنها مقسمة الى ثلاث مراتب : الأولى والوسطى والأخيرة ، لكن الكلام عليه أظهر » .. ثم ينتهى كما انتهى بكلامه في تهذيب الخلائق الى آخر مرتبة الحيوان وهي « مراتب القروء وأشباهاها من الحيوان التي قارب الانسان في خلقته الانسانية ، وليس بينها الا اليسير الذي اذا تميز به صار انسانا »

* * *

وأشار ابن خلدون الى هذا التدرج - أو التطور - فترقى به من المعدن الى القرد الى الانسان ، وعلل اختلاف الناس بتأثير الاقليم وأحوال المعيشة على الابدان والأخلاق ..

قال : « ان عالم التكوين ابتداء من المعادن ثم النبات ثم الحيوان على هيئة بديعة من التدرج : آخر أفق المعادن متصل بأول أفق النبات مثل الحشائش وما لا بذور له ، وآخر أفق النبات مثل النخل ، والكرم ، متصل بأول أفق الحيوان مثل الحلزون والصدف ولم يوجد لها الا قوة اللمس فقط ، ومعنى الاتصال فى هذه المكونات أن آخر أفق منها مستعد بالاستعداد الغريب لأن يصير أول الأفق الذى بعده ، واتسع عالم الحيوان وتعددت أنواعه وانتهى فى تدرجه التكويني الى الانسان صاحب الفكر والروية ترتفع اليه من عالم القردة الذى اجتمع فيه الحس والادراك ، ولم ينته اليه الفكر والروية بالفعل .. وكان ذلك أول أفق الانسان من بعده ، وذلك غاية شهودنا .. »

وينفى ابن خلدون أوهام القائلين بنسبة الألوان والطبائع الى الدعوات أو اللعنات ، فيقول ان « بعض النسابين ممن لا علم لهم بطبائع الكائنات » توهم أن السودان وهم ولد حام بن نوح اختصوا بلون السواد لدعوة كانت عليه من أبيه ظهر أثرها فى لونه وفيما جعل الله من الرق فى عقبه .. ودعاء نوح على ابنه حام قد وقع فى التوراة ، وليس فيه ذكر السواد .. وانما دعا عليه أن يكون ولده عبيداً لولد اخوته لا غير . وفى القول بنسبة السواد الى حام علة من طبيعة الحر والبرد وأثرهما فى الهواء ، وفيما يتكون فيه من الحيوانات »

ويقول فى موضع آخر : « استولى الحر على أبدانهم وفى أصل تكوينهم ، فكان فى أرواحهم من الحرارة على نسبة أبدانهم .. وكذلك يلحق بهم قليلا أهل البلاد البحرية لما كان هوائها متضاعف الحرارة بما ينعكس عليه من أضواء بسيط البحر وأشعته »

ويصحح بعض المتقدمين ما لعله يسبق الى الوهم من القول بتدرج

الكائنات ، إذ يخيّل الى الجاهلين بمعناه أنه يعنى تنقل الكائنات فى درجة
مدرجة من مراتبه المتترقية ، وانما حقيقته كما قال الخازنى : « اننا اذا قلنا ان
الانسان بلغ حد الكمال وكان يوما عجلا فصار حمارا فعدا حصانا فأضحى
بعده قردا ، فليس معنى ذلك انه كان يوما عجلا فصار حمارا فعدا حصانا
فأضحى بعده قردا حتى صار فى النهاية انسانا »

فليس عندهم من الضرورى أن يكون كل كائن رفيع قد تنقل قبل ذلك
بين أطوار الكائنات التى هى دونه ، وان كان جميع المتكلمين فى أطوار
الكائنات الحية لا يمتنعون امكان التسلسل بين بعض الحشرات والحيوانات
المختلفة ، كما جاء فى كتب الحيوان جميعا ، وأسهب فيه الجاحظ على
الخصوص اسبابا سلم فيه من كثير من خرافات المتقدمين عليه واللاحقين
به فى هذا الباب ، وأكثرهم ترديدا لهذه الخرافات القزوينى صاحب عجائب
المخلوقات ، فهو حافل بالأساطير عن اختلاط أنواع الأحياء ، وعن الخلائق
الأسطورية التى انقرضت ولم يبق منها غير آثارها وأخبارها ، وعجائب
المخلوقات التى تتواتر الأحاديث عن وجودها فى الأطراف النائية التى لم
يصل اليها أحد غير من ضل طريقه أو جنحت به السفن من الملاحين والمفررين
وهذه الأساطير — تكما قلنا فى غير هذا الكتاب (١) — تنفعنا الآن أكثر
مما تنفعنا حقائق تلك الكتب « لأنها هى البقية الباقية لنا من تلك الأوهام
التي تسلطت على العقل البشرى فى أزمانه الحالية ، وهى المفتاح الذى ليس
لدينا مفتاح سواه لحزاة المخيلة ، وما أكتنه من تصورات الانسان ووجدانه
وما انطبع فيها من البدائى العميقة المتغلغلة التى عودتنا أن تنطق بالأحاجى
والألغاز تبهم حتى على صاحبها وهو الذى أوجدها وصورها .. وهذا
الكتاب الذى نحن بصدده مكتظ بتفصيل أنواع هذه الحيوانات وما يتشاكل
منها فى البر والبحر .. فمنها كلب الماء وقنفذ الماء وبقرة الماء وفرس الماء ،
ووزعموا انها تلد من خيل الأرض ، ومنها انسان الماء ويشبه الانسان الا أن
له ذنبا .. وقد جاء شخص بواحد منه — على قول القزوينى — الى بغداد فعرضه
على الناس ، وذكر أنه فى بحر الشام ببعض الأوقات يطلع من الماء الى

الحاضرة انسان ، وله حية بيضاء يسمونه شيخ البحر ويبقى أيا ما ثم يترك
 فإذا رآه الناس يستبشرون بالحُصْب ، وحكى أن بعض الملوك حمل إليه
 انسان مائى فأراد الملك أن يعرف حاله ، فزوجه امرأة نجاء منها ولد يفهم
 كلام الأيوين ، فقيّل للولد : ماذا يقول أبوك • قال أذئاب الحيوان كلها على
 أسافلها ما بال هؤلاء أذئابهم على وجوههم • ونقل عن يعقوب بن اسحاق
 السراج أن رجلا ركب البحر فألقته الريح الى جزيرة • • « فأتى قوم وجوههم
 كوجوه الكلاب وسائر أبدانهم كأبدان الناس »

وهذه الأساطير وما شاكلها قد تدرس على أنها تعبيرات من عمل المخيلة
 فى فهم الصور البعيدة بزمانها أو مكانها ، وقد تدرس على أنها ترجمان
 للوعى الباطن الذى استقر فى أعماق بديهة الانسان وغرائزه الوراثةية ،
 ولا بد أن تدرس فى جميع الأحوال لأنها مما يصح أن يعتبر « منسودات »
 للإدراك الانسانى تظهر فى كل عصر ولا تزال فى كل عصر معلقة بين الشك
 واليقين وبين الوهم والصدق . فى انتظار التصحيح والتنقيح

أثر مذهب النشوء في الغرب

قوبل إعلان مذهب النشوء في الغرب بثورة عاصفة من حملات الاستنكار والتكفير في البيئات الدينية ، ويرى بعد انقضاء أكثر من قرن على إعلان هذا المذهب أن حملات الدينين عليه في البلاد الغربية لم تكن أحذق ولا أليق بالبحث الديني أو العلمي من أشباه هذه الحملات التي قوبل بها بلادنا الشرقية يوم انتقل إليها للمرة الأولى ، كما سنبينه فيما يلي :

لقد حرم بعض معاهد العلم تدريس مذهب النشوء ، فظل هذا التحريم ياقى الأثر الى ما بعد الحرب العالمية الأولى بسنوات ، وحوكم الأستاذ سكوب في دايتون (شهر يولية سنة ١٩٢٥) لأنه خالف القانون الذي حرم تدريس المذهب لخروجه على العقيدة الدينية ، وهذه بعض الأسئلة والأجوبة التي سجلت أثناء المحاكمة بين محامى الدفاع وخبر الاتهام :

— هل تقرر أن كل ما ورد في التوراة ينبغي أن يقبل بتفسيره الحرفي .
— أنا أقرر أن كل ما ورد في التوراة ينبغي أن يقبل كما ورد فيه .
وبعض ما جاء في التوراة قد ورد في سياق التشبيه ، كقوله : « انكم ملح الأرض » . فلا استلزم من ذلك أن الانسان كان ملحاً أو انه كان له دم من الملح ، ولكننى أفهمه كما أفهم شعب الله المختار . .

— هل لك أن تخبرنى يامستر بريان كم عمر الكرة الأرضية ؟

— كلا ياسيدى . . لست أدري

— ولا على وجه التقريب ؟ . .

— لست أحاول . . ولعلى أقترب من تقدير العلماء ، ولكننى أحب أن

أدقق كثيراً قبل الجواب

- انك لا تعبأ كثيرا بالعلماء ٠٠ أتعبأ بهم حقاً ؟
- نعم ياسيدى ٠٠
- أعتقد ان الكرة الأرضية صنعت فى ستة أيام ؟
- ستة أيام نعم ٠٠ ولكنها ليست أيام الأربع والعشرين ساعة

* * *

وقد احتدم الجدل أثناء الاستجواب حتى اندفع الفريقان الى التشهير بالعقائد الشائعة وبالمذاهب العلمية التى كانت مباحة للناشرين محرمة على المعلمين ، وكان أثر الضجة التى رددتها الصحف والأندية الثقافية حول هذه المحاكمة أن قانون التحريم سقط بالاهمال ثم بالالغاء

الا أن الباحثين الدينيين عدلوا أخيراً عن التحريم بقوة القانون الى مناقشة المذهب بالبراهين العلمية ، فأخذ منهم فريق فى تفسير المذهب بالمعنى الذى يوافق الروايات الدينية بمعانيها الرمزية ، وأخذ الفريق الآخر فى إنكاره بالأدلة العلمية التى استند اليها العلماء ولا يزالون يستندون اليها الى هذه الأيام ٠٠

فصدر عند الاحتفال بانقضاء ستين سنة على اعلان المذهب ، كتاب من كتب البحث العلمى على الطريقة الدينية ألفه الأستاذ ث.ب ٠ بيشوب وسماه « النشوء منتقدا » (١) ولم يتزحزح فيه عن نصوص الكتب ، ولكنه أخرج من هذه النصوص ما يتناول الفترات التى تضطرب فيها روايات التاريخ كالفترة بين الفيضان ووفود الخليل ابراهيم الى كنعان ، وأخرج منها الفترات التى لا تتعارض فيها النصوص والشواهد الجيولوجية ، ثم بنى انتقاده للمذهب على مطالبة النشويين بالدليل ٠٠ لأن العصور الجيولوجية لم تتكشف قط عن انسان يخالف فى تكوينه الثابت تكوين النوع الانسانى فى صورته الحاضرة ، ولم تبق من آثار الطوارىء الجيولوجية-

بقية من أنواع الأحياء الأولى ، بل يرجح أن أقدم هذه العصور لا يعود بنا الى مسافة أبعد من منتصف الطريق ، كما رأى والاس شريك دارون . . . حيث يقول فى كتابه عن عالم الحياة « انه لمن المحتمل جدا أن السجلات الجيولوجية الباقية لا تحملنا الى أبعد من منتصف العمر الذى عمرته الحياة على الكرة الأرضية »

فليس فى السجلات الجيولوجية دليل ولا قرينة تؤيد القول بتطور الانسان من نوع آخر ، وأهم من ذلك أنه لا يوجد أمامنا دليل يؤيد تحول الأنواع فى عالم الحيوان أو عالم النبات ، وان تشابه الأجنة الذى يتخذه بعض النشويين دليلا على التشابه القديم بين أنواع الحيوانات دليل مكذوب ، لأن صور الاجنة الصحيحة لا تبرز هذا الشبه ، وما عدا ذلك من الصور المتشابهة فهو مزور باعتراف واضع تلك الصور العالم الألماني أرنست هكل ، فانه أعلن بعد انتقاد علماء الأجنة له أنه اضطر الى تكملة الشبه فى نحو ثمانية فى المائة من صور الأجنة لنقص الرسم المنقول

ولم يدع بيشوب دليلا علميا بغير تعقيب عليه ، يستند الى أقوال العلماء المختصين . . . فقال ان حصان الحفريات على أقدم صورته لم يثبت من نسبته الى فروع الخيل غير الأسنان ، وان الطائر الذى قيل انه الحلقة المفقودة بين الزواحف والطيور لم يتبعه قط فى تسلسل الحفريات طائر ذو أسنان ، وأيا كان نظام التطور بالنسبة الى الخالق فالعالم النشوي الأمين على علمه لا يتخذه سببا من أسباب الاحاد ، وكذلك كان والاس مؤمنا بالعقل المدبر كما قال فى كتابه عن عالم الحياة ، اذ يقرر جازما باعتقاده « ان ما نطلبه - اطلاقا - ولا مناص من الاستدلال عليه ، هو ذلك العقل الذى هو اسمى وأعظم وأقوى من كل هذه العقول المتفرقة التى نراها حولنا ، وانه لعقل لا يقدر على تسيير هذه القوى العاملة فى الأنواع الحية وعلى ارشادها وتديرها وحسب ، بل انه لهو بذاته ينبوع تلك القوى والعوامل ، وينبوع لما هو الأساس الأول لكل ما فى هذه العوالم المادية . . . »

* * *

ويؤخذ من متابعة الفترات التى يستعاد فيها النقاش حول أصل الانسان

أنها ترتبط بالمحّن « الروحية » التي تنيرها مشكلات العالم الكبرى ،
 وأكبرها في القرن العشرين مشكلة الحرب العالمية الأولى والحرب العالمية
 الثانية ، وقد تكون المناسبة لاستعادة النقاش تاريخية من قبيل الذكريات
 الموقوتة بالعشرات أو بالمئات من السنين ، ولكنها إنما تستعاد في هذه
 المناسبات ببواعث الشكوك والمنازعات التي تصاحب الحروب العالمية والفتن
 الاجتماعية ، ولهذا كانت نهاية الحرب العالمية الثانية دورا من أهم أدوار
 البحث في مذهب النشوء بما دعت إليه من بحوث متشعبة في تنازع البقاء
 وإرادة القوة ، وفي تفسير التاريخ بالعوامل الاقتصادية أو العوامل الفكرية
 والروحية ، وفي هذه السنة - سنة ١٩٤٥ - تدفقت الكتب التي تعرض
 لهذه المباحث بأقلام علماء الطبيعة وعلماء اللاهوت ، ولكن مؤلفات اللاهوتيين
 في هذه الفترة لم تكن دون مؤلفات العلماء الطبيعيين في حجج العلم وشواهد
 التجربة وصدق النظر في أقوال الأنصار والخصوم . ولعل أجمعها فيما أطلعنا
 عليه كتاب « الله والانسان في الكون » (١) الذي توفر على تأليفه نخبة من
 الباحثين الدينيين يعرفون وجهات النظر « الكاثوليكية » في تحقيق كل
 فلسفة تبحث في الأصول ، ومنها أصل المادة وأصل العقيدة وأصل الانسان
 وأصل النظام الاجتماعي وما يتشعب عن هذه الأصول من البحث في
 مشكلة الشر وتاريخ الكنيسة ورأس المال والمادية الماركسية وغيرها من
 مشكلات الانسان التي تتوالى في كل زمان بأسلوب وعنوان

* * *

وقد استفاد مؤلفو هذه المجموعة من جميع المعارك العلمية التي
 انتشرت بعد الحرب العالمية الأولى ، ولم تكن متداولة بين الكتاب اللاهوتيين
 في الربع الأول من القرن العشرين ، وأمعنوا في التفصيلات التشريحية
 التي كانت مجتمعة في الفوارق الواسعة بين تركيب القرد وتركيب
 الانسان ، ولا سيما الفارق المميز للانسان الناطق . وهو قوام الفصل بين
 النوعي الأدنى وعامة الأنواع العليا . فهذا الفارق الواسع في الملكات
 العقلية يقابله فارق دقيق في تكوين الدماغ ، يبين استحالة النطق بغير

(١). God, Man and the Universe

هذا التركيب الانساني الخاص بدماع الانسان دون سواه : فالرأس الانساني يحتوى جميع المناطق التى وصفناها فى رؤوس القردة ، ولكنها تتخصص بمناطق أخرى تسمى بالمناطق الناقصية . . أبرزها تلك المنطقة الخاصة بمراكز الألفاظ الكلامية ، وهى مستحيلة بغير الاتصال الوثيق بأجهزة الكلام من عضلات الوجه والفم والبلعوم مع جهاز التنفس سواء من جانب حركات الحس ومراكز اللمس والسمع بل البصر كذلك . . فهناك مركز للنطق فى مقدمة مراكز الحركة فى الوجه ، ومراكز بصرية للكلام فى المنطقة الجدارية ، ومراكز سمعية فى الفص الصدغى ، وفقدان مراكز الحركة يستتبع العجز عن الحركات المتقابلة الضرورية للنطق بغير تعطيل عمل اللسان والشفيتين . . كذلك تستتبع آفات البصر عجزا عن قراءة الكلمة المكتوبة ، كما تستتبع آفات السمع عجزا عن فهم الكلمة الملفوظة وان تيسر سماعها . ويضاف الى هذه المراكز مراكز أخرى خلفية يرى بعضهم أنها مقر لأدق الوظائف السيكلولوجية . . ولا يوجد غير الشمبانزى بين القردة المعاصرة حيوان له مناطق ثانوية ذات امتداد جد ضعيف »

* * *

وعلى هذه الوثيرة المطردة يؤدى هؤلاء العلماء اللاهوتيون أمانة « العلم الطبيعى » لابرار مواضع الشبهة فى أدلة مذهب النشوء وقرائنه التى لم ترتفع الى قوة الدليل ، فهم يوسعون الفارق غاية التوسع المحتمل فى حدود المقررات العلمية ، ولا يدعون فارقا خفيا منها الا وضحوه وكبروه وبلغوا به غاية الشك ، وباعدوا غاية البعد بينه وبين مرجحات اليقين ، ولم يقصروا ذلك على الأدلة أو القرائن التى يستند اليها النشويون للقول بتحول النوع الانساني من الأنواع الدنيا . . بل شملوا به كل دليل وكل قرينة تدعم فروض التحول بين نوع ونوع من الحشرات والأسماك والزواحف والطيور والفقاريات ، ومنها المتسلقات وغير المتسلقات .

* * *

وقويل مذهب النشوء باعتراض شديد بين علماء الطبيعة الذين ناقشوه بالأدلة العلمية ، وطلبوا من دعائه دليلا محسوسا على فعل الانتخاب الطبيعى

فى تحول الأنواع ، ولا سيما نوع الانسان . . فالمعترضون عليه - طلبا
للأدلة الطبيعية ، لا يقلون عددا ولا اعتراضا عن المعترضين اللاهوتيين .
وقد أيده أناس من كبار علماء الطبيعة وتحمسوا لتأييده ، فكان تحمسهم
له باسم حرية الرأى أشد من تحمسهم له ايمانا بحقيقته واعترافا بكفاية
براهينه . فمن هؤلاء العلماء - بل من أشدهم حماسة له - توماس هكسلى
صديق دارون وصهره ومدره المذهب كله فى حياته ، فانه لم يزعم قط
ان أدلة الانتخاب الطبيعى المؤيدة لتحول الأنواع كافية لتقرير هذه
النتيجة ، وانما كان يقول ان الانتخاب الطبيعى يفسر لنا جملة من الظواهر
والمشاهدات تبقى بغير تفسير لو لم نتقبل مبادئ الانتخاب الطبيعى ،
كما عرضها دارون بعد تعديله لآراء لامارك . ويرى العالم البيولوجى
الكبير أن نظرية التطور على أساس الانتخاب الطبيعى ، انما هى نظرية
منطقية وليست بالنظرية التى تعتمد على شواهد التجربة والأدلة الحسية .
قال فى رده على هربرت سبنسر : « اننا لن نستطيع أن نثبت بالمشاهدة
عملية الانتخاب الطبيعى » وأن قول هربرت سبنسر « انه أما أن تحدث
وراثه للصفات المكتسبة أو لا يحدث تطور على الاطلاق » انما هو دليل
منطقى وليس بالدليل التجريبي ، وهو مع ذلك ليس بالدليل الملزم فى
قضايا المنطق ، لأن تعليل التطور بغير وراثه الصفات المكتسبة ليس بالغرض
المستحيل

* * *

وبقيت هذه العقدة عصية الحل على القائلين بالتحول النوعى الى
اليوم ، فلم يتقدم أحد من النشويين عند الاحتفال بذكرى كتاب أصل
الأنواع (١٩٥٨) بدفع حاسم لشكوك المترددى فى قبول تحول الأنواع .
وقد كتب دوبزانسكى Dobzansky أشهر المختصين بالبيولوجية النوعية
فصلا عن الأنواع بعد دارون فى مجموعة : « قرن من دارون » (١) فلم
يحاول تهوين القضية ، ولكنه زاد أسبابا جديدة لبيان الصعوبات التى
تحول دون تلاقى الناسلات والصبغيات فى أرحام أفراد الحيوان المتميزة ،

وزاد أسبابا أخرى لبيان الصعوبات التي تحول دون تلاقى المبردين من نوع واحد أخذ في التباعد والاختلاف ، ومن ذلك نقص الألفة بين الذكور والاناث كلما ابتعدت أشكالها ولو بقيت ناسلاتها وصبغياتها قابلة للتزاوج والانقسام الى تمام تكوين الجنين

* * *

وأخر ما نعلم من أطوار هذه المشكلة أن البحث عن الحلقة المفقودة ، ينتقل الآن من سلسلة الأنواع الى سلسلة الناسلات Genes والصبغيات . . . وان الأمل في الوصول الى هذه الحلقة من استقصاء تاريخ الأنواع ، وقد ألف الأستاذ برنارد ريتش أستاذ علم الحيوان بجامعة ميونستر كتابه عن « التطور فوق مستوى الأنواع » (١) ليشرح هذه الفكرة ويبين ان عزل النوع ، إنما يتم بانعزال ناسلاته وان البحث في تاريخ تغير الناسلات هو مرجع البحث الأصيل للوصول الى الحلقة التي تفصل بين ما تقدمها وما تلاها ، وتنشئ شروطا جديدة للنسل والوراثة فتعتبر بذلك حداً فاصلاً بين نوعين . . . فليس من السهل أن ننتظر تحول الأنواع بعد تطورها وابتعاد أواخرها من أوائلها الموعلة في القدم ، ولكننا اذا اكتشفنا سر تطور الناسلات وانعزالها بخصائص التوريث دفعة واحدة أو على درجات متقاربة فهاهنا محل الحلقة المفقودة في سلسلة الأنواع

مذهب التطور في الشرق العربي

من خصائص مذهب دارون - علي ما يظهر - أن يشيع على نحو واحد قبل الوقوف على شروحه وبراهينه ، وأن يثير ضروبا متقاربة من الاعتراض في مواطن العقيدة والثقافة العامة . فانه لقي في الشرق العربي مثل ما لقيه من التحريف والاعتراض في البلاد الأوروبية ، وتتابعت أدوار السماع به ثم الاشاعة عنه ثم الرد عليه بين المفكرين وقراء العلم الشرقيين كما تتابعت قبل ذلك بين مفكرى الغرب وقرائه ، وتكرر هذا كله في الشرق العربي كأنه يحدث للمرة الأولى ، ولم تنقشع شبهاته عن حقائقه الا بعد الثورة المفاجئة التي يظهر - كما أسلفنا - أنها مقدمة لا بد منها وأثر من آثار الصدمة الشعورية المفاجئة لا محيص عنه

وقد تصدى للرد عليه في الشرق الاسلامى عامة ، والشرق العربى خاصة ، نخبة من المفكرين وقادة الاصلاح والمجتهدين من أتباع جميع الأديان الكتابية ، وناقشوه كما شاع لأول وهلة بين الغربيين من قبل كأنه مذهب يستلزم انكار الخلق ويزعم أن القردة جدود البشر أجمعين ، فكل انسان حديث فهو نسل متأخر لقرد قديم

وقلما يتصور القارئ العصرى ان مذهباً كمذهب التطور يشيع فى الشرق العربى قبل مائة سنة ، ويتصدى للرد عليه عدد من الكتاب كذلك العدد الذى بقيت لنا بعض كتاباته وانطوى أكثرها فى زوايا المطبوعات المهجورة من المصنفات والنشرات الصحفية . لأن القارئ العصرى يحسب أن مذهب التطور قد وصل الى الأمم الشرقية وهى فى « جاهلية » لا تبلغها دعوة عالم أو مفكر من أبناء الأمم الأجنبية ، ولكن الواقع أن « جاهلية » القرن التاسع عشر لم تكن فى شرقنا العربى حجاباً دون المذاهب الفكرية التى يطلع عليها الأوربى المثقف فى حينها ، ولم يكن مذهب كمذهب التطور لينعزل فى حيز محدود بين جدران وطن واحد وهو يتحدث عن نسب

الانسان حيثما كان ، فى زمن لم يتحدث فيه الناس عن شيء كما تحدثوا
عن مفاخر الأمم بالأصول الانسانية وبالأنساق التى يدعيها السادة لأنفسهم
وينكرونها على الرعايا المستعبدين

* * *

وسنختار فى هذا الفصل أمثلة من مناقشة المذهب كما فهمه فى ذلك
العصر أصحاب الاجتهاد ورواد الفكر من المسلمين والمسيحيين ، ومنهم
أهل السنة والشيعة ، وأتباع الكنائس الشرقية والغربية فى بلاد العالم
العربى ، وقد وصلت أصدااء الردود التى كتبها المشهورون من أولئك
المفكرين الى أطراف البلاد الاسلامية فى الهند والصين

قال السيد جمال الدين الأفغانى من أئمة المصلحين من أهل السنة فى
كتاب الرد على الدهريين :

« . . رأس القائلين بهذا القول داروين ، وقد ألف كتابا فى بيان ان
الانسان كان قردا ثم عرض له التنقيح والتهديب فى صورته بالتدريج على
تتالى القرون المتطاولة وتأثير الفواعل الطبيعية الخارجية حتى ارتقى الى
برزخ أوران أوتان ، ثم ارتقى من تلك الصورة الى أول مراتب الانسان
فكان صنف النيمم وسائر الزنوج ، ومن هناك عرج بعض أفرادهم الى أفق
أعلى وأرفع من أفق الزنجيين فكان الانسان القوقاسى

» وعلى زعم داروين هذا ، يمكن أن يصير البرغوث فيلا بمرور القرون
وكر الدهور ، وأن ينقلب الفيل برغوثا كذلك . . فان سئل داروين عن
الأشجار القائمة فى غابات الهند والنباتات المتولدة من أزمان بعيدة لا يحددها
التاريخ ، الاظنا ، وأصولها تضرب فى بقعة واحدة وفروعها تذهب فى
هواء واحد وعروقها تسقى بماء واحد ، فما السبب فى اختلاف كل منها
عن الآخر فى بنيتها أو أشكال أوراقه وطوله وقصره وضخامته ورقته وزهره
وثمره وطعمه ورائحته وعمره ، فأى قاعل خارجى أثر فيها حتى خالف
بينها مع وحدة المكان والماء والهواء ؟ . . أظن لا سبيل الى الجواب سوى
العجز عنه . .

« وان قيل له هذه أسماك بحيرة أورال وبحر كسبين تشاركها في المأكول والمشرب وتسابقها في ميدان واحد ، ترى فيها اختلافا نوعيا وتباينا بعيدا في الألوان والأشكال والأعمال - فما السبب في هذا التباين والتفاوت فلا أراه يلجأ في الجواب إلا إلى الحصر .. »

« وهكذا لو عرضت عليه الحيوانات المختلفة البنى والصور والقوى والخواص ، وهي تعيش في منطقة واحدة ولا تسلم حياتها في سائر المناطق من الحشرات المتباينة في الحلقة ، المتباعدة في التركيب ، المتولدة في بقعة واحدة ، ولا طاقة لها على قطع المسافات البعيدة .. فماذا تكون حجته في علة اختلافها .. بل اذا قيل له أى هاد هدى تلك الجراثيم في نقصها وخداجها .. وأى مرشد أرشدها الى استتمام هذه الجوارح والأعضاء الظاهرة والباطنة ووضعها على مقتضى الحكمة وإبداع كل منها قوة على حسبه ونوطها بكل قوة في عضو أداء وظيفته وإفاء عمل حيوى مما عجز الحكماء عن درك سره ، ووقف علماء الفسيولوجيا دون الوصول الى تحديد منافعه ، وكيف صارت الضرورة العمياء معلما لتلك الجراثيم وهاديا خبيراً لطرق جميع الكمالات الصورية والمعنوية .. لا ريب انه يقبع قبوع القنفذ وينتسكس بين أمواج الحيرة ، يدفعه ريب ويتلقاه شك الى أبد الآبدين .. »

« وكأنى بهذا المسكين وما رماه في مجاهيل الأوهام ومجاهيل الخرافات الا قرب المشابهة بين القرد والانسان ، وكان ما أخذ به من الشبهة الواهية الهية يشغل بها نفسه عن آلام الحيرة وحسرات العماية

« وانا نورد شيئا مما تمسك به ، فمن ذلك ان الخيل فى سيبيريا وبلاد الروسية أطول وأغزر شعرا من الخيل المولدة فى البلاد العربية ، وانما علة ذلك الضرورة وعدمها . ونقول : ان السبب فيما ذكره هو عين السبب لكثرة النبات وقتله فى بقعة واحدة لوقتتين مختلفين حسب كثرة الأمطار وقتلتها ووفور المياه ونزورها أوجد علة النعافة ودقة العود فى سكان البلاد الحارة .. والضخامة والسمن فى أهل البلاد الباردة بما يعترى البدن من كثرة التحلل فى الحرارة وقتله فى البرودة .. »

« ومن واهياته ما كان يرويه داروين من ان جماعة كانوا يقطعون أذنان كلابهم ، فلما واطبوا على عملهم هذا قرونا صارت الكلاب تولد بلا أذنان . . . كأنه يقول حيث لم تعد للذنب حاجة كفت الطبيعة عن هبته ، وهل صمت اذن هذا المسكين عن سماع خبر العبرانيين والعرب وما يجرونه من الختان ألوا من السنين ، لا يولد مولود حتى يختن . . . الى الآن لم يولد واحد منهم مختونا الا لاجاز

» ولما ظهر لجماعة من متأخري الماديين فساد ماتمسك به أسلافهم ، نبذوا آراءهم وأخذوا طريقا جديدة . . . فقالوا ليس من الممكن أن تكون المادة العارية عن الشعور مصدرا لهذا النظام المتقن والهيئة البدئية والأشكال العجيبة والصور الأنيقة وغير ذلك مما خفى سره وظهر أثره ، ولكن العلة في نظام الكون علوية وسفلية . . . والموجب لاختلاف الصور والمقدر لأشكالها وإطوارها وما يلزم لبقائها تتركب من ثلاثة أشياء : متغير ، وفورس ، وانتليجانس ، أى مادة وقوة وإدراك ، وظنوا أن المادة بما لها من القوة وما يلامسها من الإدراك تجلت وتتجلى بهذه الأشكال والهيئات ، وعندما تظهر بصور الأجساد الحية نباتية كانت أو حيوانية تراعى بما يلبسها من الشعور وما يلزم لبقاء الشخص وحفظ النوع ، فتنشئ لها من الأعضاء والآلات ما يفنى بأداء الوظائف الشخصية والنوعية مع الالتفات الى الأزمنة والأمكنة والفصول السنوية . هذا أنفوس ما وجدوا من حلية لمذهبهم العاطل بعد ما دخلوا ألف جحر وخرجوا من ألف نفق ، وما هو أقرب الى العقل من سائر أوهامهم ولا هو بالمنطبق على سائر أصولهم ، فانهم يرون كسائر المتأخرين ان الأجسام مركبة من الأجزاء الديمقراطيةية - نسبة الى ديمقريطس - ولا ينطبق رأيهم الجديد فى هذا النظام الكونى على رأيهم فى تركيب الأجسام ، وذلك لأنه يلزم عن القول بشعور المادة أن يكون لكل جزء ديمقراطيى شعور خاص ، كما يلزم أن تكون له قوة خاصة ينفصل بها عن سائر الأجزاء ، اذ لا يمكن قيام العرض الواحد وحدة شخصية بمحلين ، فلا يقوم علم واحد بجزئين ولا بأجزاء . . .

« وبعد ذلك فانى سائلهم كيف اطلع كل جزء من أجزاء المادة مع انفصالها على مقاصد سائر الأجزاء . وبأية آلة أفهم كل منها باقيةا بما ينويه

من مطلبه ؟ ٠٠ وأى برلمان أو أى سنات - مجلس شيوخ - عقدت للتشاور
فى ابداع هذه المكونات العالية التركيب البديعة التأليف ؟ ٠٠ وانى لهذه
الأجزاء أن تعلم وهى فى بيضة العصور ضرورة ظهورها فى هيئة طير يأكل
الحبوب فمن الواجب أن يكون له منقار وحوصلة لحاجته فى حياته
اليهما ؟ ٠٠

* * *

وبعد كتابة « الرد على الدهريين » بنحو ثلاثين سنة ، ظهر كتاب نقد
« فلسفة دارون » لمؤلفه الشيخ « محمد رضا آل العلامة التقى الأصفهانى »
وهو باحث فاضل من علماء الشيعة بكرلاء المعلى ، تحرى النظر فى مجموعة
وافية من مراجع مذهب النشوء العربية والافرنجية التى وصلت الى الشرق
الاسلامى بعد كتابة « الرد على الدهريين » ولم يقنع بما اطلع عليه من هذه
المراجع ، بل أرسل فى طلب غيرها من المراجع المستحدثة ، ولكنه ألف كتابه
ولم ينتظر وصولها اليه لولا « الباعث الدينى » كما جاء فى مقدمة الكتاب
حيث يقول ان دارون وسائر رؤساء هذه الفلسفة افوا كتباً غير موجودة
عندنا « وكان الحزم تأخير تصنيف هذا الكتاب الى زمن وصولها لولا الباعث
الدينى وطننا انه يوجب علينا المسارعة ، ولا يبعد أن يكون قد منعنا صغرى
دليل قد فرغ هؤلاء من اثباته أو كبرى حجة مذكور فى كتبهم برهانها ،
وأنا أقترح عليهم أن يخبرونا بما يجدون منه ومن أمثاله لننظر فيه ، ولهم
علينا أن نستعمل الانصاف لا المكابرة »

ولم يقصد المؤلف بالباعث الدينى أن يقصر ردوده على مناقشة الآراء
التي تخالف الديانة الاسلامية دون سائر الديانات ، ولكنه أراد أن ينقض
أدلة الاتحاد التى تعارض الايمان بالله وبالعقائد الإلهية على اجمالها ، وقال
فى كلمته الخاصة بالمؤمنين : « ليعلم أن كتابى هذا موضح للدفاع عن الدين
المطلق فى قبال اللادين المحض ، لا للانتصار لدين على دين ٠٠ ولهذا ترانى
أدفع ما استطعت عن أديان لا أنتحلها ومذاهب لا أقول بها ، لأن أحد هؤلاء
لا يثلب ديننا الا وقصده ثلب الأديان عامة ولا يزرى على شريعة الا ليسرى
أزراؤه الى الشرائع قاطبة ٠٠ »

وأنصف المؤلف مذهب النشوء ، فلم يحسبه من مذاهب الاتحاد والتعطيل لأن القول بالنشوء لا يقتضى انكار الخالق وانما يتسرب اليه الاتحاد من تفسيرات الماديين لمقدماته على الوجه الذى يوافق نتائجهم المقررة عندهم قبل ظهوره ، فيقول المؤلف عن فلسفة النشوء والارتقاء انها « ليست مما ينافى الدين ، اذ الذى يجب علينا اعتقاده هو أن جميع الموجودات بأراضيها وسماواتها وما فيها من صنوف المخلوقات من نباتاتها وحيواناتها ، والبشر على صنوفها واختلاف لغاتها ، صنع اله واحد قادر حكيم قد وسع كل شئ علما وأتقنه صنعا .. خلق جميع الأصناف من جميع الأنواع عن قصد واختيار ، وهذا أمر متفق عليه فى جميع الأديان ، وأما كيفية الخلق وان هذه الأنواع كلها خلقت خلقا مستقلا ، ووجدت من كتم العدم ابتداء ، وانها لم تتغير عما وجدت عليه فى أوائل الخلق ، فهذا أمر لم يرد فيه نص صريح من الكتاب ولا متواتر من السنة ، وسواء كانت آباء الجمل جمالا أو كانت ضفادع تنق فى الماء ، والجد الأعلى للغيل فيلا أو « سنونوا » ينلر فى الهواء ، فان أدلة الصنع عليهما فى الحالين ظاهرة ، وفيها على وجود الصانع الحكيم آيات باهرة . ففرحة الملاحدة بهذه الآراء وجعلها أساسا للاتحاد من أغرب الأشياء »

ثم يقول المؤلف ان هذه الآراء « ليس فيها الا بيان ترتيب المخلوقات وكيفية الصنع فيها ، ومتى كان أهل الدين ينكرون ذلك ويدعون أن الله تعالى خلق جميع الأشياء فى وقت واحد خلقا مستقلا عن الآخر ؟ .. وهم يرون الله تعالى بلطيف حكمته وبديع صنعته يخلق الثمر من الشجر ، والشجرة من النواة ، ولا يجعل العنب حلوا الا بعد ما يجعله حامضا ، ولا يجعله حامضا الا بعد ما يجعله مرا »

ويستطرد المؤلف الى تلخيص آراء النشويين الذين آمنوا بالخالق ، ثم يرجع الى أقوال الأقدمين من الهمج الذين انتسبوا الى القردة كما انتسبوا الى غيرها من الحيوان ، ويرجع بعد ذلك الى أقوال أئمة المسلمين الذين عرفوا الشبه بين الانسان والقرد ، ولم يذهبوا مذهب دارون فى تعويله على وجوه الشبه واعراضه عن الخلاف فيقول : « ان أئمة المسلمين وعلماءهم ذكروا ما هو أغرب وأقرب » ويستشهد بكتاب التوحيد الذى أملاه الامام

جعفر الصادق على المفصل بن عمر الجعفي ، ومنه على رواية المؤلف : « تأمل خلق القرد وشبهه بالإنسان في كثير من أعضائه ، أعنى الرأس والوجه والمنكبين ، وكذلك أحشائه أيضا شبيهة بأحشاء الإنسان ، وخص مع ذلك بالذهن والفتنة التي بها يفهم من سائسه ما يرمى إليه ، ويحكى كثيرا مما يرى الإنسان يفعله ، حتى أنه ليقترب من خاق الإنسان وتماثله . . أن يكون عبرة للإنسان نفسه فيعلم أنه من طينة البهائم وسنحها ، إذ كان يقرب من خلقها هذا القرب ، وأنه لولا فضيلة فضل بها في الذهن والعقل والنطق كان ك بعض البهائم . . على أن في جسم القرد فضولا أخرى تفرق بينه وبين الإنسان كالخاتم والذهب المسال والشعر المجال للجسم كله ، وهذا لم يكن مانعا للقرد أن يلحق بالإنسان لو أعطى مثل ذهن الإنسان وعقله ونطقه »

ويستقل المؤلف إلى كلام الدمي ، إذ يقول عن القرد أنه « أشبه الإنسان في غالب حاله ، فانه يضحك ويلرب ويغنى ويحكى ويتناول الشيء بيده وله أصابع مفصلة إلى أنامل وأظافر ، ويقبل التلقين والتعليم ويأنس بالناس ويمشي على رجليه حين يسيرا ، ولشعر عينيه الأسفل أحدا ، وليس ذلك لشيء من الحيوان سواه فهو كالإنسان ، يأخذ نفسه بالزواج والغيرة على الأنثى ، وهما خصيلتان من متأخر الإنسان ، فإذا زاد به الشبق استمنى بفيه ، ونحل الأنثى أولادها كما تحمل المرأة . . وفيه من قبول التأديب والتعليم مالا يخفى . . »

ويذكر المؤلف أن أخوان الصفاء بلغوا بوصف هذه المشابهة ما لم يبلغه دارون ، حيث قالوا أن القرد « لقرب شكل جسمه من جسم الإنسان صارت نفسه تحاكي النفس الإنسانية » ثم يذهب على ذلك التشبيهات جميعا ، فيقول أن الإنسان - كما يشابه القرد في أشياء - يشابه غيره من الحيوان في غيرها « بل لعل في الحيوانات الدنيا من شبه الإنسان أقساما لا توجد في العليا ، فلا يصح الاعتماد على مجرد المشابهة . . وهذا الأستاذ الشهير « كوفيه » يقول أن إدراك القرد ليس أرقى من إدراك الكلب إلا قليلا . . وإذا سلمنا أن من لوازم المشابهة التحول ، فكيف يتعين تحول الإنسان عن

حيوان نشأ عنه القرد ؟ .. فلعل الانسان تحول قردا .. وهذا ما نص عليه
الذكر الحكيم ،

وبعد مناقشة المؤلف قرينة الشبه الظاهر بين الانسان والقرد ، مضى
يناقش القرائن الأخرى التى يستند اليها النشويون المقلون بتحول الأنواع
وتحول النوع الانسانى من بينها ، عن أصله المشترك بينه وبين الفقاريات
العليا ، فنهج فى مناقشته على هذا المنهج الذى يستمد الدليل من أصغر
الجدل المنطقي تارة ومن تجارب الواقع تارة أخرى ، وأفادته مطالعته المتفرقة
لمراجع المذهب .. فلم يخطئ مواضع الحجة الواقعية أحيانا ، مع اعتماده
الغالب على منهج النقائص الجدلية .. ومن قبيل ذلك انه عمد الى دليل من
أقوى أدلة النشويين وهو بقاء الأعضاء الأثرية - كالثندوة - فى ذكور
الانسان ، فتساءل : « لا أدري لماذا بقي أثر عار الخنثة ظاهرا فى الانسان ،
ولم يبق فيما هو أدون منه فى سلم الارتفاع كنشوات الحافر » ولم ينس أن
يستدرك على هذا الاعتراض بما أسنده الى ما قاله الشيخ الرئيس فى الشفاء
« ان الفيل الذكر له ثدى كما للانسان ، وذكر ذوات الحافر لا ثدى لها
الا ما يشبه أمهاتها وينزع اليها كما يعرض مرارا فى الحيل » ..

وجملة رأى المؤلف أن ما يسمى بالأعضاء الأثرية يدخل فى باب
« الشذوذات » التى تعرض لتكوين بعض الأحياء ، وهى أجنة فى بطون
أمهاتها ، أو تعرض لها خلال نموها ، وعدد من ذلك ما يولد وله أربع أيد ،
أو ما يولد وله جوف واحد ورأسان ، وأربع أقدام ، أو ما يولد وقلبه فى
غير موضعه ، ثم قال متسائلا : « فهل يمكن تصنيف هذه الشذوذات المتنوعة
بحيوانات كانت كذلك فى العصور الجيولوجية فانتقلت الى هؤلاء التعساء
بناموس « الأنافيسيم » ؟ .. فان لم يمكن ذلك فلتكن الشذوذات التى فيها
بعض الشبه بالحيوانات من هذا القبيل »

ومنهج المؤلف فى نقد الانتخاب الجنسى - وهو سبب هام من أسباب
التطور - كمنهجه فيما تقدم ، فهو يبدأ بالانتخاب الجنسى فى النبات
ويسأل : كيف يقع الانتخاب الجنسى بين النباتات التى لا يتوقف تلقيحها
على الحشرات والطيور ؟ .. وكيف تميز الحشرات والطيور ما هو جميل وما هو

أجمل ؟ ٠٠ ثم يقول : « ان العجماوات قليلة الإدراك لما فى المصنوعات الجميلة من الجمال حتى. أن بعضهم جعل ذلك أعظم فارق بين الانسان وبينها ، وكان الأستاذ هكسلى ممن يذهب هذا المذهب »

قال : « ثم هب أن هذه الحيوانات الملقحة عذرية الهوى والغرام ، وهائمة بالجمال كعروة بن خزام ٠٠ ولكنها لا تريد مغازلتها بل تطلب رزقها المقسوم لها ، وعند أى نبات وجدته لقحته حسنا كان أو قبيحا فلا أدري بما يعلل هذا الحسن وانتظام فى الفواكه والأثمار وما فيها من الطعم المحبوب والنكهة الطيبة ونحوهما مما لا يوجد الا بعد التلقيح »

ثم أنحى المؤلف على أساس مذهب التحول ، لأنه قائم على افتراض تعدد الأنواع بعد انفرادها أو قتلها ، وليس هذا الافتراض باللائم ضرورة من قياس العقل ولا من نتائج الواقع : « ومن الطريف فى هذا الرأى أنه كما يمكن أن يعلل به القول باتحاد أصول الأنواع أو قتلها ، كذلك يمكن القول بعكس ذلك والتعليل له أيضا ، فيقال ان أصول الأحياء كانت فى بدء الخلق أفرادا متباينة بأقصى ما يكون من التباين وعدم التشابه ، فلم يزل كل حى يخلف نسلا يشبهه بناموس الوراثة ويباينه بناموس المباينة لكن بما يقربه الى فرد آخر ، فلم تزل تلك المباينات مع الأجداد تزيد المشابهات مع سائر الأفراد ، وتنازع البقاء يلاشى الضعيف ، والطبيعية تنتخب القوى حتى صارت التباينات التى قلنا انها مع غير المشابهات ثابتة ، فتألفت منه الأنواع الموجودة ٠٠ وله شواهد على مذهب هؤلاء ، فالحية مثلا تعد الآن من جنس الدبابات ولا تجتمع معها فى الأصل بل أصلها من ذوات الأرجل ، وقل مثله فى الحيوانات المنحطة التى يذكرها بخنوخ وغيره ، فانها الآن تؤلف جنس المنحطات وهى بعيدة فى الأصل منها ٠٠ »

قال : « وهذا الاحتمال ٠٠ وان لم أجد أحدا قال به فى أصول الأنواع ، ولكنه أحد القولين المشهورين فى أصل اللغات ٠٠ وعند العلماء مذهبان شهيران : الأول أن لغات البشر متشابهة ، وهى كلها من أصل واحد ٠٠ وهذا الأصل قد تفرع وتنوع فتولدت منه لغات البشر المختلفة ، فما اللغات سوى لهجات من لغة واحدة ولكنها بعدت عن الأصل كثيرا وتغيرت بالزيادة

والنقصان والنحت والحذف حتى بعدت بعضها عن بعض هذا البعد الشاسع ، وتعذر رد بعضها الى بعض لفقد الحلقات الكثيرة من بينها . والمذهب الثانى انه كانت للغات البشر أصول مختلفة بحسب عدد طوائفها ، وانه مع إلزمان اقتربت هذه اللغات بعضها من بعض فتمازجت وتشابهت بتمازج أهلها وتشابههم الخ . . . وعند الكاتب أن المذهب الثانى أقرب الى الصحة وأقدر على حل المشكلات من الأول . . . »

وتابع المؤلف بحثه فى النشوء ، فاستطرد منه الى البحث فى الارتقاء وسأل : « أى معنى لارتقاء ذوات الأربع عن الطيور ، وارتقاء الانسان عن ذوات الأربع ، مع اشتراك الكل فى حصول التغير ؟ » . . .

وانتهى المؤلف الى أن المذهب كله ناقص الاستناد ، لا توجد فيه حجة قاطعة غير قرائن الترجيح والتغليب ، ولا غنى له عن المزيد من البحث والتنقيب ، كما قال بعد أكثر من خمسمائة صفحة على هذا المنهج مستندا الى قول فيرسو العالم الألمانى : « انه فى بعض طوائف الناس صفات يشاركونهم القرد فيها ، كما فى بروز الفك وفطس الأنف مما يجعل العلاقة قريبة بين تلك الطوائف والقروء حتى يحتمل ارتقاؤها من القروء ، ولكن بين الاحتمال والقطع بونا شاسعا لأن الصفات المشار اليها لا تقوم نوع القرد بل المقوم له خواص أخرى ، وكل قدة من جلده كافية لتمييز نوعه من غيره من الأنواع ، ولا أظن أن واحدا من المشرحين المشهورين يرتاب فى ذلك ، والفرق بين الانسان والقرد واضح جدا حتى أن كل قطعة من الواحد كافية ليستدل منها على النوع المقطوعة منه . . . فالأدلة على النشوء الفعلى قاصرة جدا لا يبنى عليها حكم ، ولا بد من أن يزيدنا البحث والتنقيب للوقوف على أدلة أخرى قوية : . . . »

* * *

ويتبين من مراجعة « المكتبة النشوئية » فى الشرق العربى ان الاهتمام بالمذهب كان على أشده بين أتباع الكنائس الكاثوليكية والكنائس الانجيلية ، لأنها هى الكنائس التى تصدى علماء اللاهوت منها لمناقشة مذهب دارون عند اعلانه فى موطن ظهوره ، وشاركون فى ذلك علماء الطبيعة المسيحيون

ممن أنكروا المذهب واستندوا في انكاره الى الأدلة العلمية ، وطالبوا النشويين بمزيد من الأدلة القاطعة لاثبات نظرياتهم لأنها نظريات تنقض بعض المقررات الدينية ، ولا يكفي في مثل هذه الحالة أن تستند النظرية الى الترجيح والتغليب أو الى الطن والتقدير ، وقد يعزى الى هذا السبب كثرة الدراسات التي تعرضت لمذهب النشوء من الناحية الدينية أو من الناحية العلمية بأقلام فضلاء الكنائس الكاثوليكية والانجيلية من كتاب اللغة العربية ، وبخاصة في البلاد التي كان اللاهوتيون يشرفون على معاهد التعليم فيها ويأخذون بزمام ثقافتها وآدابها .

ونحن نختار هنا من الدراسات النشوئية التي كتبت باللغة العربية ، ولا نستقصيها لكثرتها وخروج معظمها عن موضوعه . ولم نجد بينها ما هو أولى من دراسات الأساتذة ابراهيم الحوراني ، والأب جرجس فرج صغير الماروني ، والأسقف خير الله اسطفان ، والدكتور حليم عطية سوريال ومنهم من كتب عن هذا المذهب قبل خمس وسبعين سنة ، وأحدثهم كتابة عنه من تصدى لمناقشته بعد ظهور كتب الدكتور « شبلي شميل » في موضوعه ، وهي مؤيدة للنشويين المنكرين للأديان

فالأستاذ ابراهيم حوراني - وهو عالم لغوي مطلع على المباحث العلمية - ألف في الرد على مذهب دارون رسالة « مناهج الحكماء في نفي النشوء والارتقاء » ثم اتبعها برسالة « الحق اليقين في الرد على بطل داروين وطبعها ببيروت (سنة ١٨٨٦) رداً على مناقشة الدكتور « شبلي شميل » لرسالته الأولى ، فصب حملته الكبرى على موطن الضعف في المذهب وهو افتقاره الى الدليل القاطع وتعويله على الشواهد التي توحى بالرأى ولا تستأصل الشكوك أو تسكت المعترض المطالب بدليل لا يضعفه الاحتمال

* * *

وقد آثر الأستاذ حوراني أن يؤخر رأيه حتى يسوق بين يديه آراء علماء الطبيعة المخالفين لدارون في القول بتحول الانسان عن غيره من الحيوان ، قال « ان العلماء لم يشبثوا مذهب دارون ، وكذلك نفوه وطعنوا

فيه مع علمهم انه بحث فيه عشرين سنة ، ومنهم العلامة ونشل مع انه من أشد الناس ميلا الى القول بالارتقاء يفعل الله . . . ومنهم العلامة ولاس قال ما خلاصته أن الارتقاء بالانتخاب الطبيعي لا يصدق على الانسان ولا بد من القول بخلقه رأسا . . . ومنهم الأستاذ فرخو قال انه يتبين لنا من الواقع أن بين الانسان والقرود فرقا بعيدا ، فلا يمكننا أن نحكم بان الانسان سلالة قرود أو غيره من البهائم ، ولا يحسن أن نتفوه بذلك . . . ومنهم « ميفرت » قال بعد أن نظر في حقائق كثير من الأحياء أن مذهب دارون لا يمكن تأييده وأنه رأى من آراء الصبيان . . . ومنهم العلامة فون بسكوف ، قال بعد أن درس هو وفرخو تشريح المقابلة بين الانسان والقرود أن الفروق بين البشر وأنقرود أصلي وبعيد جدا . . . ومنهم العلامة أغاسيز ، قال في رسالة في أصل الانسان تليت في ندوة العلم الفكتورية ماخلاصته ان مذهب داروين خطأ علمي باطل في الواقع ، وأسلوبه ليس من أساليب العلم بشيء ولا طائل تحته . . . ومنهم العلامة هكسلي وهو من اللادرية وصديق لداروين ، قال انه بموجب ما لنا من البيانات لم يتبرهن قط أن نوعا من النباتات أو الحيوان نشأ بالانتخاب الطبيعي أو الانتخاب الصناعي ، ومنهم العلامة تنول وهو كهكسلي قال انه لا ريب في أن الذين يعتقدون الارتقاء يجهلون أنه نتيجة مقدمات لم يسلم بها . . . ومن المحقق عندي أنه لا بد من تغيير مذهب داروين . . .

ويقسم الأستاذ حوراني أنصار مذهب النشوء الى ثلاث فرق : معطلة ولا أدرية والهيية . . . « أما المعطلة فهي التي نفت الخالق سبحانه وقالت بقدم المادة . . . وأما اللادرية فهي التي لم تتعرض لنفي الخالق ولا لاثباته ، وأما الالهية فهي التي اعترفت بالواجب تعالى ، وقالت بأنه خالق المادة والحياة وانقسمت هذه الفرقة الى اثنتين ، ظنت احدهما الانسان ابن القرود أو صنوه ومنها داروين ، وقالت الأخرى بأن الله خلق الانسان من البدء انسانا ومنها العلامة ولاس ، وعلماء هذه الفرقة أصحاب النشوء الالهى الذى قالت بإمكانه وصرحت بعدم البرهان على وقوعه وبأن عليه اعتراضات لم تدفع دفعا مقنعا »

ثم أورد الأستاذ حوراني احصاء بعض علماء الحفريات عن الأنواع

التي وجدت في باطن الأرض ، فقال ان ثمانية وعشرين في المائة منها أنواع لم تتغير ، وسبعة في المائة أنواع مهاجرة ، وخمسة وستين في المائة لا سلف لها . وأما الأنواع التي نشأت بالتغير أو الأنواع الجديدة ، فلا وجود لها في شيء من بقايا الحفريات

ويرد الأستاذ حوراني على استدلال النشويين بتشابه الأجنة بين الانسان وبعض الحيوان ، فيقول ان علة هذا التشابه « بساطة التكوين وقصر النظر » بدليل أن التباين يعظم على توالي اقترابها من كمال التكوين ، فلا ينشأ من بيوض الانسان أو أجنته سوى أناس ، ولا ينشأ من بذرة اللوز الا لوزة »

ويحيل النشويين الى بحث التيرانولوجيا - أي المشوهات - لتفسير الأعضاء الأثرية التي تثبت بعد ولادة الجنين ، ومن أمثلتها « الأعنث » أي من له ست أصابع وهو من أبسط الأمثلة ، والأشوه المزدوج كهيلين وجوديت وهما الأختان الهنغاريتان المشهورتان ، كانتا ملتصقتين بالمتنين والأفخاذ والأحقاء ولدتا سنة ١٧٠١ وعاشتا اثنتين وعشرين سنة وكانتا مختلفتي السجايا والأخلاق

وقال عن الانتخاب الطبيعي انه لا يمكن « أن يكون رأس الارتقاء الدارويني لأن الطبيعة انما تؤثر في الموجود ، وليس لها أن توجد المعدوم ، فيمكنها أن تعمى العيون » ولكنها لا تستطيع أن توجد البصر » ويقتضى مذهب داروين أن لا تجتمع الأنواع الدنيا والعليا بل تتعاقب وتسبق الأولى الثانية أبدا ، ولكن ذلك الاجتماع ثبت في المنقرضات والأحياء »

وأضعف ما في ردود الأستاذ حوراني قوله عن قدم الانسان ، اذ يقتضى مذهب داروين أن يكون الانسان قديما جدا « ولكنه تبين لأشهر العلماء وأكابرهم من النشويين وغيرهم انه أحدث الأحياء وانه كان منذ بضعة آلاف سنة ، وأثبت العلامة دوسون أنه كان في ثانی العصر الجليدي وهو المعروف بالأكثر أحدثية ، وفضل ذلك في خطبة له في الانسان قبل زمن التاريخ » وقال الدكتور هويدن : نظرت أربع فرق مستقلة من الجيولوجيين

تفى زمن نشوء الانسان فاتفقت على انه نشأ منذ ما بين ستة آلاف وسبعة آلاف سنة ٠٠ »

* * *

وفى ابان احتدام المناقشة بين منكرى المذهب ومؤيديه ، أصدر الأب جرجس فرج صغير الماروني مدرس الفلسفة بالمدرسة اللبنانية فى قرنة شهوان (١٨٩٠) كتابا نهج فيه منهج الحوار بين خصمين ، سمي أحدهما بالانسان القردي وسمى الآخر بالانسان الآدمي ، وأدار الحجاج بينهما على هذا المثال ، مع اختصار بعض التفصيلات :

الآدمي - أين تجدون أشكال الانتقال من يد قرد الى رجل انسان ٠٠
أفهل عثر على ذلك أحد علمائكم ، فان لم تعثروا على شيء من ذلك ٠٠٠
فالانسان القردي لا يكون له وجود ٠٠

القردي - ان المباحث البالونولوجية « الخنيرية » والحق يقال لم تأت بما يعرب عن تسلسل بين الانسان والقرد أو أحد أنواع الحيوانات ٠٠ على أن أساتذتنا قد أجمعوا على انه من المحتمل ان من الحيوانات التى على شكل حصان البحر ما يتحول الى حيوان قوائمه على شكل قوائم الخنزير ، وان منها ما قد يتحول الى الماعز ومنها الى الحرفان ٠٠ الخ

الآدمي - فان كان ذلك من طوابع المحتمل لا من أمارات اليقين ، فأين العلم الحقيقى الذى تعولون عليه ٠٠ ؟

القردي - نعم ٠٠ اننا لم نجد الى الآن أثرا الى الانسان القردي ، غير أن العلم لم يمه قضاؤه

الآدمي - ولكن ماذا يكون هذا العلم الذى يقضى بخلاف الواقع ٠٠
فاننا نرى الأنواع لا تتغير عن ذاتها وان كثرت فيها الأنسال ، فان قلت لا فارق بين النوع والنسل أسكتتك العلائم الفزيولوجية ونحن نحصرها فى أمر وهو النتاج

القردى - ومن يمكنه أن يرسم تخوم النوع والعلماء لا يكادون يتفقون على شيء منه ؟

الآدمى - أو يكون الجهل فى أصل شيء أو فى علته حجة فى انكار وجوده ، أفننقه ما للعلائم الجوية والأرضية من الأسباب والعلائق . . . ونحن مع ذلك لا ننكر وجودها . . . انا نعلم ان المولود من قران الفرس والحمار لا يكون الا عاقرا ، فنقول : لا بد من فرق نوعى فى مولده ، . . . أذجهلنا فى رسم حدوده يمكننا من انكار وجوده . . .

القردى - . . . الا أنى أعرف من أصحابكم من يقول بإمكانية مذهب التحول . . .

الآدمى - لا نجهل أن البعض من أصحاب الايمان يحبون أن يوفقوا بين التحول والايمان ، فيقولون : ان الله سبحانه قد جبل آدم من تراب قد عركه كثير من المولدين من الحازباز الى آخر حيوان ذى أربع قوائم ، فأخذ الله هذا الحيوان الاخير من السلسلة المتحولة وهو القرد ونمخ فيه النفس البشرية ، وعليه فيكون آدم نتاج عمل محول وخالق معا . وأبين لك فى غير مفاوضة كيف يعمه هؤلاء فى الضلال . . . ومن العجيب كيف لا ينفقهون ان هذا المذهب انما تنفيه الفلسفة نفسها كما سبق بيانه . . .

القردى - أو هل تنفيه الفلسفة لو افترضنا تداخل الله عند انتقال كل من الأنواع كما تدخل عند خلق الانسان ؟ . . .

الآدمى - اذا افترضت تداخل الله سبحانه كان لابد من تعويض نفس بنفس . . . أما هذا التعويض فيتم اما بوجود القرد الأول الذى تكون أو فى بداية الانتشار ، وكلا الافتراضين لا يتحقق . أما الأول فلأنه يفترض قتل الحى ثم اقامته أو ملاماته ثم إقامة آخر بدله

القردى - قرأت فى كتب بعض أصحاب مذهب التحول ان التمايز انما ينتج من عمل صدفة يدور عليها الانتخاب الطبيعى ، فما قولك فيه ؟ . . .

الآدمي - قد سبقهم الى مثل هذا القول غيرهم من الملحددين الذين
بؤيدون المادة ٠٠ ونحن نوقفك على أدلة تذكر ما يعولون عليه من فعل
لصدفة في تمايز الكائنات

ان الصدفة لا تقع الا في الأشياء التي يمكن لها أن تكون على خلاف
ما هي ٠٠ فقد يمكن للطاولة التي يصنعها النجار أن تكون مربعة أو مدورة ،
أما الأشياء التي هي من الضرورة ، ودائماً ، فلا يمكن لها أن تحدث بطريق
الاتفاق ٠ ولكن من الأشياء ما لا يمكن له أن يكون على خلاف ما هو ، مثل
الجواهر البسيطة وذوات الأشياء وحقائقها ومثل الأعمال التي تصدر عن
فاعل لا يصادمه في فعله شيء ، كالجاذبية مع قطع النظر عن كل مانع
يصادمها في فعلها ، وعليه فان هذه الأشياء لا تقع عليها الصدفة ٠٠ أتنظن
ان للصدفة أن تجعل الكلب حمارا والحمار كلبا ٠٠

٠٠ ونحن نشاهد أن الحركات والأفعال إنما تلي تمايز الأشياء ولا
سبقها ٠٠ أي لا ترى ان السفينة لا تتحرك ولا تجرى قبل أن يجعل كل
من آلاتها في موضعه على هيئة من التمايز لا ينبغي أن يشوبه أدنى خلل »

ويفضي هذا الحوار الى عجز « الانسان القردى » عن الجواب فيتيبعه
صاحب الكتاب بمناقشة مطولة لمذاهب الماديين يستند فيها الى حجج الفلسفة
اللاهوتية ، ويقرر فيها أن العلوم الطبيعية وحدها لا تكفي لتحقيق النظر في
أصل الوجود من حيث هو موجود ، ولهذا سمي البحث عن أصل الوجود بما
بعد الطبيعة لأنه « ينبغي أن يقرأ هذا العلم بعد الوقوف على علم الطبيعيات ،
والمراد به علم يبحث عن الوجود من حيث هو موجود ، أي عن ذات الأشياء
بقطع النظر عن معانيها وأحوالها الخاصة التي ينجاز بها الشيء عما سواه ،
وعلم يبحث به عن الأسباب الأخيرة للوجود والمعرفة ، فان كليهما لا ينفصلان ،
لأن مبادئ المعرفة والعلم العالية المطلقة إنما هي التي تمكننا من الوقوف
على أسباب الوجود ٠٠ ولذلك فانه يكون علم العلوم »

ولا نعلم ان كتابا فى هذا الموضوع بقلم باحث مسيحى من كتاب اللغة العربية ظهر قبل كتاب « صفوة علم اليقين فى حقيقة مذهب داروين » لمؤلفه الأسقف خير الله اسطفان ناظر مدرسة عين ورقة الذى ألفه بعد الكتاب السابق بأكثر من ثلاثين سنة (١٩٢٩) أعيد فى خلالها طبع مؤلفات الدكتور شبلى شميل فى هذا المذهب ، ونشط البحث بين الأوربيين فى نظريات النشوء عامة على أثر البحوث المتضاربة فى نظريات تنازع البقاء واردة القوة وما إليها من « الفلسفات » التى أثارها الحرب العالمية الأولى ومشاكل العلم والاجتماع فيما بين الحربين العالميتين . وقد أشار الأسقف الى الأطوار التى مرت بمذهب داروين منذ اعلانه الى تلك السنة ، فنقل كلاما عن العالم الألمانى ادوارد فون هارتمان قال فيه انه « فى سنة ١٨٦٠ كانت مقاومة الأفذاذ من العلماء الشيوخ لنظرية داروين شديدة ، وفى سنة التسعين أخذت هذه النظرية تنتشر فى كل صقع تقريبا ، وفى سنة الثمانين كان نفوذ المذهب الداروينى عاما ومطلقا حتى كاد يبلغ بسموه سمت الرأس ، وفى سنة التسعين بدأت بعض الشكوك تعتلى وبعض المقاومات تظهر ، وعلامة التصدع والانهدام تبينت واتضح ، وفى العقد الأول من الجيل العشرين بدأت أيام المذهب أن تكون معدودة ، وكان بين مضاديه وداحضى حججه من العلماء ايمر ، وغوستاف وولف ، ودى فريز Vrise وفون والشستين Wallstin وفليشمان Flischmann ورينك Reink وغيرهم كثيرون .

وبعد هذا التمهيد عرض الأسقف للبحث من الناحية اللاهوتية فقال : « ان البحث العلمى عندما يأتى بنتائج واقعية أكيدة تجتمع ساعتئذ كلمة العالم المسيحى وغير المسيحى عليها على غير تصاد ولا تناف ، وهذا هو عين الصواب والرشد لأن الحق لا يغير الحق ، ولا يتساهل لاهوتيو الكنيسة الكاثوليكية كما انهم لا يسلمون لأخصامهم القائلين بالمذهب الداروينى . المحض ، وهذا بعض الواجب عليهم بالنظر الى ما يناقض حقائق الوحى المقدس ، غير انهم متى رأوا من بعض الوجوه اتفاقا بين اللاهوت ونظرية النشوء كانوا من هذا القبيل لينى الجانب لطقاء هينين . فمن هؤلاء العلماء الاهواء المتثدين الأب وسمان الجرمنى الشهير بعلم طبائع الحشرات . الميال الى الاعتقاد بنظرية نشوء الأنواع المعتدلة ، القائل بأن أنواعا كثيرة من النبات

والحيوان نشأت من أنواع طبيعية أصلية أبدعها رب الطبيعة الخلاق ، كالأرانب
الآليفة والبرية والحمار والفرس والكلب والثعلب الخ .. فانك بهذا ترى
أن مبدأ الخلق والابداع لبث غير ممسوس البتة ، فاذا حل تصور اشتقاق
الأنواع الجديد بالتحدّر والتسلسل محلّ التصور القديم لنبات الأنواع على
عدم التغير كانت حكمة البارى فى الجديد أمجد منها بالقديم ، من وجه أنه
عزّ نواله وجلّ جلاله وضع فى الطبيعة الآلية قوى تؤهلها لتحذير ونشر صور
جديدة لموجودات حية بدون افتقار الى توسط أو تدخل قدرة الله المبتدعة
للكون ونواحيه والمحتنية بحفظها وإدارتها . وحينما تتصادم نظرية ما مع
التعليم المسيحى نصادما واضحا غير قابل لنشك .. يجب وقتئذ رفض هاتيك
النظرية وطرحها مطلقا ، وبناء على هذا كل من قال بمبدأ نشوئى ينفى به
الحقيقة قطعا بدون رجعة يجب أن يضرب بقوله ومبدئه عرض الحائط ، وكل
نظرية تنكر خلقه العالم بستة أيام يراد بها ستة أدوار أو ست مدد يجب أن
تطرح ، وكل قول بأدوار طويلة مرت وانقضت بين تكوّن الأرض وخلق
الانسان هو قول معقول لهذا هو مقبول .. لأنه ليس فى الكتاب الكريم
ما ينفيه أو ينقضه . أما بالنظر الى أصل الانسان ، فالكاثوليك مقيدون
بنص سفر التكوين ، ويمكنهم التوسّع بتفسير كلمة الكتاب من جهة
الجسد .. فقد ارتأى بعضهم ان المقصود بقوله جبله من تراب الأرض انه
قضى ورسم الصورة وهى الهيئة وليس كما يجبل الفاخورى الجرة والابريق ،
وأما من جهة النفس فالتعليم الكاثوليكي والفلسفة الصادقة الرصينة يلزماننا
أن نقف عند الاعتقاد الراهن الثابت بأن أنفسنا روحية بحتة وبذا تفرق
وتمتاز جوهريا عن نفس الحيوان »



وتلى هذه المقدمة براهين الأسقف التي بنى عليها رفض تحول الإنسان عن غيره من الحيوان ، وهي تتلخص في المطالبة بالحلقة المفقودة ، وهي « لم ير لها أثر أو عين بين الأحياء ولا بين الأموات ، لا في الأحافير ولا في المنحدرات » .

ثم سأل الأسقف : « اذا ثبت مذهب النشوء هل يناقض الدين ؟ »

فكان جوابه : « اننا نجيب مع العلماء النزيهين المجريدين من الأغراض والاهواء بالنفى ، وانه لا يضاد مقاصد الخالق وغاياته » واستشهد ببحث للدكتور مكوشى يقول فيه : « ان النشوء بجميع مذاهبه لا ينفى مقاصد وغايات البارئ عز وجل ، فالأستاذ هكسلى النشوءى الكبير والمادى المعروف بين الناس النبىء سلم يكون النشوء لا يلزم منه نفى مقاصد الله ، وان ترتب أو توقف مخلوق على آخر أو عملهما معا لاتمام مقصد جيد أو اكمال غاية حسنة كالحياة للنبات وطيب العيش للانسان والحيوان لهو دليل واضح عند كبار العلماء على مقاصد الله . . فالذى يصنع آلة تعمل هي آلة مثلها ، لهو أحق وأقدر وأحكم من الذى يصنع آلة تقتصر على العمل المقصود منها ولا تعداه . . »



وفى سنة (١٩٦٧) ألف الدكتور حليم عطية سورىال - الطبيب الأول من أسيرىوط كتاب « تصدىح مذهب دارين والانبات العلمى لمقيدة الخلق » نسبة فيه الى خطأ يسبق الى بعض الأذهان ، وهو اعتقادهم أن انكار مذهب النشوء مقصور على رجال الدين ، فان من كبار العلماء الطبيعيين من يرفضه كالأستاذ فيالتون Vialleton عميد كلية الطب بجامعة مونبليه وأستاذ علم الأجنة فيها ، والأستاذ كاترفاج مدير متحف التساريخ الطبيعى بباريس وهو القائل « اننا لا نعلم كيف تكررت الأنواع الحية . . اننا نعلم فقط انها غير قابلة للتحول واننا على يقين بأن دارون ولامارك لم يكتشفنا الناموس الحقيقى للطريقة تكوينها » .

ثم سرد الدكتور سورىال أسماء بعض الأساطين عن علماء الطبيعى المعارضين لمذهب التحول ، وخالصة رأيهم فى الاختلاف بين الأنواع « ان . . . تلك العوامل لا يمكنها أن تغير نوعا من الأنواع الحية الى نوع آخر وكل التغيرات التى يمكنها أن تحدثها سطحية لا تمس التركيب الجوهري للحيوان أو النبات وبعضها باثولوجية - مرضية - تقود الى انقراض النوع ، ولقد قال العالم الايطالى روزا ان الاختبار الاصطناعى الذى جربه بنو الانسان فى خلال الستين سنة الماضية دليل عظيم ضد نظرية دارون . . »

ويقرر الدكتور أن الحلقة المفقودة ناقصة بين طبقات الأحياء ، وليست

بالناقصة بين الإنسان وما دونه فحسب » فلا توجد حلقات بين الحيوانات الأولية ذات الحافية الوحيدة والحيوانات ذوات الحليات المتعددة ، ولا بين الحيوانات الرخوة ولا بين المفصليّة ، ولا بين الحيوانات اللاقريّة والفقرية ، ولا بين الأسماك والحيوانات البرمائية ، ولا بين الأخيرة والزحافات والطيور ، ولا بين الزحافات والحيوانات الثديية ، وقد ذكرتها على ترتيب ظهورها في العصور الجيولوجية ٠٠ »

ثم قال بعد الاستشهاد بكثير من أمثال هذه الملاحظات العلميّة : « ار هناك مسألة منطقيّة بسيطة ٠٠ وهي معرفة كيف استطاع المخلوق الذي يعتبره التحويّلون الحلقة المفقودة بين القرد والإنسان أن يعيش بين الحيوانات الضارية التي تحيط به ٠٠ فان أصعب نظرية النشوء يقولون ان عند المخلوق كان أضعف عقلا من الإنسان الحالي ٠٠ فكيف يمكن لمخلوق ضعيف الجسم وضعيف العقل أن يعيش وحوله الأسد والفيل والدب والنمر وغيرها من الحيوانات المفترسة ؟ ٠٠٠ »

ويعتبر نقاد مذهب دارون أن مشكلة الحلقة المفقودة بين الأنواع - كما شرحها اندكتور سوربال - هي مشكلة المشاكل في تمحيص هذا المذهب الى اليوم ، وانها لا تزال على قوتها واقناعها بعد انقضاء مائة سنة على ظهور كتاب أصل الأنواع واستئناف التعليق عليه بين خصوم المذهب وأخصائه الذين استجابوا غاية ما استطاعوا لحل هذه المشكلة عند الاحتفال بذكر مرور القرن على ظهور ذلك الكتاب

* * *

ونحن نكتفي بالردود المتقدمة لأنها تمثل مناحي التفكير عند رجال الدين في مناقشة مذهب النشوء ، وهي :

١ - منحي الجزم بالرفض والحكم ببطان المذهب في جملته وتفصيله لأنه مناقض للدين غير مستند الى أدلة قاطعة

٢ - منحي الرفض لنقص الأدلة مع تعليق النتيجة بانتظار الأدلة المقنعة والإيمان بأنه - اذا ثبت - لا يقضى بتكذيب العقيدة الدينية ، والعقلية ، في الخالق ٠٠

٣ - منحنى القول بأن الأدلة العلمية التي يوردها العلماء لنفيه والتشكيك فيه أرجح من الأدلة العلمية التي يوردونها على تأييده ..

* * *

اما أنصار مذهب النشوء في الشرق العربي فقد كان أشهرهم وأفصحهم بياننا الدكتور شبلى شميل ، وقد كاد أن يسبق دارون وأصحابه الى الأخذ بالنظريات النشوئية على علاتها ، وقد سبق الماديين الغربيين الى نفى كل صفة روحية ، أو غيبية في الانسان ، اذ قال في مقدمة ترجمته لشرح بختر على مذهب دارون « ان الانسان على رأى هذا المذهب طبيعى هو وكل ما فيه مكتسب من الطبيعة . وهذه الحقيقة لم يبق سبيل للريب فيها اليوم ، ولو أصر على انكارها من لا يزال مفعول التعاليم القديمة راسخا في ذهنه رسوخ النقش فى الحجر .. فالانسان يتصل اتصالا شديدا بعالم الحس والشهادة ، وليس فى تركيبه شئ من المواد والنقوى يدل على اتصاله بعالم الروح والغيب ، فان جميع العناصر المؤلف منها موجودة فى الطبيعة وجميع القوى التى فيه تعمل على حكم قوى الطبيعة .. فهو كالحیوان فزیولوجیا ، وكالجماد كىماویا ، والفرق بينه وبينها فقط بالكمية لا الكيفية والصورة لا الماهية والعرض لا الجوهر .. فالانسان يحس ، والحیوان يحس ، والانسان يدرك ، والحیوان يدرك ، ونواميس التغذية واحدة فيهما .. غير أن الانسان يدرك أكثر من الحيوان لأنه أكمل تركيبا من الحيوان » ..

وكانت ردود الدكتور شبلى شميل على مناقشته تكرارا لردود دارون ويختر وغيرهما من انقائين بتحول الأنواع ، وفحواها :

١ - ان التباينات بين الأنواع لا تزيد على التباينات بين أفراد النوع الواحد الا بالوراثية ، وهذه أثر ثابت لا يحكم عليه بالفترة المعلومة من تاريخ الانسان لأنها ثبتت بعد انقضاء مئات الملايين من السنين ..

٢ - وان انصاف الأنواع ليس من شأنها أن تعيش وتنقل ميراثها الى زمن طويل ، لأن التوريث مرتبط بتمام الجهاز المميز للنوع وهو لا يتم فى انصاف الأنواع ، ولكن قد يدل عليه التناسل بين بعض الحيوانات كالحيل والحمر أو الكلاب والذئاب ، وقد يدل عليه « اكتشاف الدسیر العجيب -

الاركوبتر كوس - الذى وصل بين طائفتين من الحيوان منفصل بعضهما عن بعض انفصالا تاما وهما الطيور والحشرات « ٠٠

٣ - ان العلماء يخطئون فى وضع حدود الأنواع ، وقد ذكر دارون « ان النباتى الانجليزى وستن يذكر ١٨٢ نباتا انجليزيا عدها غيره أنواعا مع أنها تباينات ، وقد قال هوكر فى هذا المعنى ما نصه : ان النباتين يعدون الآن من ٨٠٠٠ الى ١٥٠٠٠ نوع من النباتات ، فالنوع اذن غير محدود ٠٠ »

٤ - ان التحولات لا ينبغي أن يبحث عنها فى الأنواع الحاضرة ، لأن كلا منها تطور عن أنواع سابقة له فى سلسلة هى التى كان يمكن أن يجرى بينها التحول فى أوانه ، ولكن الأنواع الحاضرة تباعدت عن أصولها فابتعدت الأشياء المتحولة فيما بينها ٠٠

ولا ننسى - عند تقدير عوامل العناد بين الطرفين - ان الدكتور شبلى شميل انما يواجه بهذه الخصومة اللدود سلطان رجال الدين ، فانساق من هذه الخصومة الى خصومة الأديان ، ورأى كما قال فى مقدمة الترجمة أن « الملل والديانات أصلها واحد ، وقيامها فى الدنيا انما هو لعاملين : حب الرئاسة فى الرؤساء ، وارتياح المروءوس الى حب البقاء ، وكلاهما لما فى الانسان من محبة الذات ٠٠ فسطا دهاة الناس على ساذجى العقول منهم ، فساد البعض وسيد على البعض الآخر ، وتم بذلك غرض الفريقين »

وخطب رؤساء الدين قبل ختام المقدمة قائلا : « سوف يتولى ما بقى ، ولربما كان حظكم من ذلك فى الشرق أطول جدا لولا أن الغرب باسط فوقه يديه ٠٠ ولا تعلقوا النفس بما فى التاريخ من سقوط بعض الأمم ٠٠ أنقت اليكم مقاليد أحكامها وسلمتكم زمام أمورها ، فانه - وان حصل ذلك - الا أنكم لن تبلغوا أمانيتكم لتوفر معدات التقدم فى العلوم والصنائع وانتشار ذلك بواسطة الطباعة »

* * *

وبعد ، فهذه شذرات من التعليقات الدينية والعلمية التى قوبل بها مذهب التطور فى الغرب وفى بلاد الشرق العربى ، نحسب أننا أتينا فيها ٩ - الانسان فى القرآن الكريم

على كل رأى من آراء الباحثين الدينيين والعلميين فى هذا المذهب ، وان الكتب التى اخترناها للاقتباس منها تمثل جوانب التفكير جميعا فى هذا الموضوع .

وقد مضى أكثر من سبعين سنة على ظهور أقدم الكتب التى ذكرناها فى هذه العجالة ، ومضى نحو ثلاثين سنة على أحدثها . فاذا أردنا أن نعود إليها لنحكم عليها حكم الزمن المخصص للآراء ، فالدى نراه اليوم أن الدينيين قد وقفوا الموقف المنتظر منهم فى معارضة النشوءيين الماديين ، فليس من المنتظر أن يقابل انكار الدين بغير الانكار من أهل الدين . وقد أصاب العلامة الشيع محمد رضا حين قال انه يدفع الشبهات عن العقيدة الالهية فى كل ملة ، ولا يقتصر دفاعه على عقيدة الاسلام



ولكن الكتاب الذين تناولوا هذا الموضوع من الوجهة الدينية قد أخطأوا - دينيا وعلميا - فى انكارهم باسم السدين أمورا لا تزال قيد البحث بين الاثبات والنفى ، ويجوز أن تسفر بحوث الغد عن اثباتها بما يقتلع الشك عنها . كما يجوز أن ينفيها بما يزيل مواضع الخلاف فيما بين عقائد الدين وحقائق العلوم . وقد كان لبعضهم عذره لقللة المعلومات الصحيحة التى وصلت اليهم عن مذهب دارون ومذاهب التطور على العموم ، وكان لبعضهم عذر مثل هذا العذر قد يسوغ اندفاعهم الى درء الخطر عن العقائد الالهية يوم تعجل ثائرة التقليد ، فيجتموا على المذهب على غير علم به كعادتهم فى الهجوم على كل جديد مستغرب ، وانتحلوه للثروة بأحاديث الاحاد والمروق . فكان تعجلهم هذا داعيا الى مقابلتهم بتعجل مثله من الدينيين

بيد أنه - ولا ريب - تعجل وخيم العقبة ، قد ظهرت عواقبه الوخيمة مرة بعد مرة منذ ابتدأ العلم الحديث فى نشر كشوئه المتواليمة ، ووجب الاتعاظ بعواقب التصدى للمباحث العلمية وهى فى معرض التحقيق بين الاثبات والنفى أو التغليب والاستضعاف ، وقد علم رجال الدين فى الغرب فاذا كان من أثر تحريمهم للمقول بدوران الأرض حول الشمس ، وايجابهم تعليم النشء أن الشمس تدور حول الأرض . كان وجود الخالق جل وعلا مرتبط بدوران هذه أو تلك ، وكل فى فلك يسبحون .

لقد كان فى ذلك التعجل من رجال الدين عظة لهم تنهاهم أن يعيدوا مثل هذه الغلطة فى التصدى للمذاهب العلمية التى لم ينقطع الشك فى ثبوتها أو بطلانها ، وقد ينقطع الشك غدا بما يثبت على منكريها أنهم كانوا مخطئين فى فهم الدين والعلم على السواء . . . فان زلزال المادية الذى اضطرب له الغرب اضطرابه العنيف لم يكن له حجة على العقائد الالهية أقوى من هذه الحجة على الدين ، كما تصوره المتعجلون من « المؤمنين » على غير يقين . . .

ويشبه هذا الخطأ المنكر خطأ آخر لم ينفرد به الدينيون ، بل شاركهم فيه زمرة من العلماء لم يحسنوا التمييز بين قضايا العلم وقضايا الحشرق « المدنية » أو الجنائية فى المحاكم ودواوين الشريعة . . . فصاحب الدعوى فى المحكمة أو الدواوين مطالب باثبات دعواه لأنها مصلحة خاصة ، وفيها - اذا لم تثبت - اضرار بمصالح الآخرين . ولكن الدعوى العلمية ليست كذلك ، ولا يصح أن يناط أمر اثباتها بمن يدعيها وحده ، وهى مصلحة الناس أجمعين ، ومن ينكرها بغير حق يضر بالناس أجمعين . . .

وقد أفرط النقاد جدا فى التشبث بمسألة الأنواع الوسطى ، ولم يصطنعوا الأناة ليدركوا ما فى هذه الحجة من الضعف والعمق ويتلمسوا أن التشبث بها الى هذا الحد احراج للخصم من قبيل احراج الخصوم المتنازعين على دعاوى المحاكم والدواوين

فكيف يخطر على بال الناقد المخلص أن الأنواع الوسطى تبقى أيضا ذرية ، مع العلم بأن الوراثة لا تتم قبل استكمال خصائص النوع ؟ وكيف يفوتهم أن يلمحوا هذه الحقيقة ويرتبوا عليها ما ينبغي أن يترتب عليها من التريث والانتظار ، وهم يرون اليوم أمثلة بارزة من توقف النسل بين الحيل والحمر أو بين الذئاب والكلاب ؟ . . . واذا كان القائل بالنشوء يعجز عن اقامة الدليل على تناسل النوع المتوسط ، فكيف بحال هذا العجز اليه ولا يحال الى الواقع الذى لا حيلة له فيه ؟ . . . ان كثيرا من الاحياء الباقية الى اليوم لم يبق منها أثر يدل على وجودها فى عصور الحفائر المطمورة بين طبقات

الأرض ، فإذا جاز هذا في أمر الأنواع التي بقيت ولا شك في بقائها الى اليوم فكيف نستكثره على انصاف الأنواع التي لم تستكمل خصائص النسل والتوريث ؟

فليس من الرأي السليم - دينا ولا علما - أن يرتبط رفض النشوء بعجز النشويين عن ابقاء أنواع وسطى من الحيوان غير قابلة بطبيعتها للبقاء والتوريث . وقد يحدث غدا أن يوجد الدليل الممكن على النوع المتوسط ، أو توجد الوسيلة الممكنة للتلقيح بين الأنواع المتقاربة ، فتعود الينا قصة دوران الأرض ، ودوران الشمس يخطر على الدين والعلم لا داعية له غير التعجل والعنت في الحصومة الفكرية ، وانه لعنت معيب يجوز في خصومات المال ولكنه يحرم أشد الحرمان في خصومات الأفكار والآراء ..

* * *

وفي كتاب تدور موضوعاته على حكم القرآن الكريم في شأن الانسان يعيننا هنا أن نسأل : هل يصيب الذين يحرمون باسم الاسلام مذهب النشويين المؤمنين بالخالق ؟

وليس يخالطنا كثير من الشك ولا قليل في خلو كتاب الاسلام مما يوجب القول بتحريم هذا المذهب .. فقد يثبت غدا ان المذهب صحيح كله أو باطل كله ، أو يثبت أن بعضه صحيح وبعضه باطل ، ولكن كتاب الاسلام لا يصد عن سبيل العلم في أية وجهة من هذه الوجهات ، كما سنبينه في موضعه من الفصل الأخير .

الدين ومذهب داروين

نعود فنقرر في هذا الفصل ما ختمنا به الفصل السابق ، فنقول ان مذهب التطور ايا كان تفسير القائلين به لنشأة الأنواع ، ليس فيه ما يصح أن يستند اليه الملحدون لابطال الدين أو انكار الخالق أو القول بخلو الكون من دلائل القصد والتدبير

وقد نسب القول بنشأة الأنواع من أثر الانتخاب الطبيعي والانتخاب الجنسي الى عالمن كبيرين من علماء القرن التاسع عشر : هما شارلز دارون والفريد رسل ولاس ، ولم يكن أحد منهما منكرا لوجود الله

فأولهما - شارلز دارون - كان يقول انه يستريح الى الايمان بوجود الاله في هذا الكون الكبير ، ولكنه يرى أن شعوره هذا لا يلزم أحدا أن يشعر به مثله ولا يبلغ من شأنه أن يكون حجة علمية تقنع المنكرين

كتب في سنة (١٨٩٧) الى الاستاذ فراديس صاحب كتاب « صور من الشكوك » يقول جوابا على سؤاله : « اننى فى أشد أحوال التردد لم أكن قط ملحدا اذا كان معنى الملحد انكار وجود الله . وأرى على العموم - وبخاصة مع تقدم السن - اننى أحرى أن أسمى (لا أدريا) وان هذا الاسم أقرب الى الصواب فى وصف تفكيرى . »

وقال فى خطاب كتبه الى طالب هولندى (فى الثالث من ابريل سنة ١٨٧٣) :

« ... يبدو لى ان استحالة القول بأن هذا الكون العجاب العظيم ، وما انطوى عليه من شعورنا الواعى ، انما كان وليد المصادفة - هو أكبر سند للقول بوجود الله ، ولكنه سند لا أستطيع أن أقرر قوة اقناعه كما لا أستطيع أن أغضى عن المشكلة التى تنجم مما يتخلل هذا العالم من الآلام » .

وكتب اليه طالب ألمانى فى سنة ١٨٧٩ يسأله عن عقيدته الدينية ، وعن العقيدة التى يدعو اليها الأخذ بمذهب التطور ، فكلف أحد ذويه أن يجيبه . ويجيب غيره ممن يوجهون اليه هذه الأسئلة قائلا :

« ان مستر دارون يعتذر لكثرة الرسائل التي ترد اليه ولا يتيسر له الرد عليها جميعا ، ويود أن يقول ان مذهب التطور يوافق كل الموافقة ايمان المؤمن بالله . . . غير أننا يجب أن نذكر أن الناس يختلفون كثيرا في تعريفهم لما يعنونه بالاله »

ويفهم من خلاصة رأيه في سيرته التي كتبها بقلمه ، انه لا يفرق بين كتب العهد القديم وكتب الديانة الهندية من حيث نسبتها الى الوحي الالهي ، وانه لم يقيم لديه الدليل على حدوث هذا الوحي في التاريخ ، ولكنه اذا أراد ان ينظر الى المسألة الالهية من جانب الانتخاب الطبيعي فان أنواع الأحياء كانت خليقة أن تضرب عن تجديد وجودها واستمرار نسلها لو كانت شرور الحياة أكبر من حسناتها ، وهي الحجة التي يستند اليها الملحدون في انكارهم للمقاصد الالهية

وكان دارون على تردده في مسائل الغيب ، يشعر بقداسة الدين ويحرص على رعاية شعور المندمين ولا يرتضى من العلماء أن يقتحموا مذاهبهم على ضمائر الناس فيما اطمأنوا اليه من عقائدهم الروحية ، فلما أراد كارل ماركس أن يهدي اليه كتابه عن رأس المال كتب اليه معذرا ، وقال من رسالة محفوظة الآن بمعهد ماركس وانجلز في موسكو : « اننى أشكر لك رسالتك الودية . . . وأفضل أن يكون هذا الجزء من الكتاب غير مهدي الى محذرى لهنه التعجيب ، اذ كان اعتدائه الى يتضمن على وجه من الوجوه اقرازي لما في سائر الكتاب الذي لا عام لي به . واننى - مع غيرتى على الدعوى - الى حرية الفكر في جميع المسائل - أرى ، صواباً أو خطأ ، ان المناقشات المباشرة التي تناقض المسيحية والايمان بوجود الله قلما يكون لها أثر على جمهرة الناس ، وان خير وسيلة لتحقيق الحرية الفكرية أن تتقدم العقول تبعا لتقدم العلوم ، ولهذا أرانى أتجنب الكتابة في أمور الدين وأقصر كتابتي على المباحث العلمية »

وعاش دارون بقية حياته على هذا الرأى ، مؤمنا بأن مذهبه لا يقتضى من العقل أن ينفي وجود الله ، ولا أن يمس عقائد المؤمنين بوجوده ، وان الايمان بأية ديانة من الديانات لا يتوقف على الفصل في قضية التطور الى الرفض أو الى القبول

أما «الفريد رسل ولاس» شريك دارون في القول بتعدد الأنواع من أثر الانتخاب الطبيعي وعوامل البنية الطبيعية ، فقد كان مؤمنا قوى بالإيمان بوجود الإله . . . كانت مراقبته لعوامل الطبيعة سببا لتصديقه بالمعجزات وخوارق العادات ، لأنه كان يستخلص من فعل هذه العوامل في الطبيعة أنها لا تجرى على هذا المجرى لزاما بحكم العقل أو بحكم التفكير المنطقي ، وإنها كان يجوز أن تجرى على مجراها هذا أو على مجرى آخر يساويه ويمثله في حكم العقل والأقيسة المنطقية ، وإنما هي الإرادة الإلهية التي أوجبت هذا النظام نتيجة لتلك العوامل ، فليست المعجزة التي يريد الله أن أعجب من نظام العوامل المطردة في ظواهر الكون ، ومرجعها جميعا إلى الإرادة الإلهية على أطراد أو على استثناء

ومن عقيدة صاحبى المذهب فى مسائل الغيب ، نفيم أن العلماء والمنكرين فى الغرب ينقسمون هذا الانقسام وأن القول بأن عالما من العلماء أو فيلسوفا من الفلاسفة يقبل مذهب التطور على تعدد معانيه لا بد لنا على رأى محدود براء فى الدين المسيحى أو فى الدين عامة ، لأنه يجوز أن يكون من المؤمنين كما يجوز أن يكون من المنكرين أو المترددين ، حسب المنهج الذى ينهجه فى تفكيره وأساليب استدلاله

ومن المفكرين والعلماء من كان يجعل التطور أساسا لعقيدته الروحية أو الفكرية ، وأشهر هؤلاء بين فلاسفة القرن العشرين «برجسون» انفرنسى و «هوبتهد» الانجليزى ، وهو عدا اشتغاله العميق بالبحوث الرياضية والفلسفية رجل من رجال الدين وعالم من علماء اللاهوت . .

ويكثر بين العلماء الطبيعيين من يعتبرون التطور دليلا على النظام ، ويعتبرون النظام دليلا على وجود الخالق ، ومنهم أعضاء فى مجمع العلوم الملكى كالاستاذ «جلادستين» الذى يقول : « كثير منا نحن المسيحيين من رجال العلم من بدرकिन أن هناك وحدة فى النظام ووحدة فى الغابة ، تبدوان من خلال النظر إلى خلايق الله . . ونحن ندبن بأن مذهب دارون عن بقاء الأنسب لا بطل فكرة التندوس الإلهى أو فكرة النظام المقصود . . بل يؤكد هذه الفكرة ويمهد لنا سبيل النظر إلى الوسائل التى اختارتها العناية الإلهية لتدبير

مقاصدها منذ القدم ، فنرى انها نتيجة قانون منتظم وليست مجرد سلسلة من المفاجآت المتفرقة »

* * *

أما المنكرون من علماء الطبيعة ، فحججهم فى الإنكار أن العقيدة الدينية تقوم على الخوارق والمعجزات ، وأنه لا سبيل الى التوفيق بين عقيدة تقوم على خرق قوانين الطبيعة وبين علم يقوم على تفسير الكائنات بما تقتضيه هذه القوانين

وأشهر القائلين بهذا رأى بين علماء الطبيعة « ارنست هيكل » الالماني و « توماس هكسلى » الانجليزى ، وهو أقرب الى الاعتدال فى الإنكار من زميله ..

فهيكلى يقول : « ان العقيدة الدينية تعنى دائما تصديق معجزة خارقة ، وهى بهذه المثابة قائمة على مناقضة ينقطع الرجاء فى التوفيق بينها وبين عقيدة العقل الطبيعية ، وهى - على خلاف سنن العقل - تذهب الى فرض العوامل فوق الطبيعية ، ويحق من أجل ذلك لمن يشاء أن يسميها خرافية - أو غير طبيعية - وان ذلك الوحي المدعى الذى تأسست عليه عقائد المسيحية ليس مما يتفق مع أثبت النتائج التى وصل اليها العلم الحديث » ..

وهكسلى يقول : « اننا - أمام الأمور التى لا شك فى بعدها عن الاحتمال - لا نقول اننا محقرون فى طلب البرهان المقنع لتصديق وقوع المعجزة الخارقة .. بل نقول ان الواجب الأدبى يتقاضانا أن نجد هذا البرهان قبل أن نأخذ تلك المعجزة الخارقة مأخذ الجد والاعتبار ، ولكننا اذا كنا - بدلا من الوصول الى ذلك البرهان المقنع - لا نرى أمامنا الا حكايات نجهل كيف نشأت ومتى نشأت بين أناس يستطيعون أن يصدقوا كل التصديق أن الشياطين تتلبس بأجسام الخنازير ، فانبنى أصرح بأن شعورى انما هو شعور الدهشة من أن أرى الانسان العاقل ينظر الى شهادة هؤلاء نظرة جدية ... »

* * *

وعلى مثل هذا المحور يدور الخلاف بين الفريقين اللذين يتفقان فى قبول مذهب التطور ، ولكنهما لا يتفقان فى الحكم على دلالته من الوجهة الدينية ،

ولكن هذا الاختلاف لا يرجع الى المذهب فى ذاته . . وانما يرجع الى طريقة النظر اليه وطريقة التفكير التى تعودها ذهن العالم أو الفيلسوف ، فربما خرج الدهنان بنتيجتين متناقضتين من فكرة واحدة يراها أحدهما برهانا على وجود الله ويراهما الآخر مغنية عن البحث فى اثبات وجود الله ، وقد سأل نابليون بونابرت أكبر علماء الفلك فى زمانه - لابلاس - عن مكان العناية الالهية فى حركات الأفلاك ، فكان جوابه انه لا يرى لها مكانا فيما يعلمه من تلك الحركات ، كأنه يقول ان قوانين الحركة وحدها تفسر دورة الفلك تفسيراً يغنى عن النظر الى علة أخرى وراءها ، وهو أسلوب من التفكير يناقض أساليب الدهن الذى يراقب دورة الفلك ويعلم أن العقل لا يستلزم حصولها على هذا الوجه دون غيره ، وانه لابد - اذن - من البحث عن الإرادة التى اختارت لها هذا الوجه من الحركة فانتظمت عليه . .

ولعل الفارق بين هذين النمطين من التفكير يتعلق بالنظرة الى النظام والمعجزة ، فمن كان من القائلين بالتطور مؤمنا بالعناية الالهية فطريقته فى التفكير أن يستدل بانتظام الخلق على وجود الخالق ، وأن يرى بعد ذلك ان المعجزة لا تستغرب مع الايمان بالقدرة الالهية والحكمة التى تستدعيها ، اذا كان هناك ما يستدعى صنع المعجزات فى رأيه

ومن كان من القائلين بالتطور معطلا للعقيدة الدينية ، فطريقته فى التفكير أن التوفيق متعذر بين تفسير الكائنات بالقوانين الطبيعية وبين خرق هذه القوانين لاثبات عقائد الدين

* * *

لكن الرأى الأخير الغالب على علماء اللاهوت المسيحيين أن معارضة الرؤساء من رجال الدين لمذهب التطور عند اعلانه قبل مائة سنة لم يكن من سداد الرأى فى شيء ، وان هذه المعارضة ينبغى أن تحسب على أصحابها ولا تحسب على الديانة المسيحية التى لا تأبى التفسير على وجه موافق لمذهب التطور على أقواله المتعددة ، ويعبر عن هذا الرأى فى كتاب مؤلف لهذا الغرض عالم من أكبر علماء الرياضة وعلماء اللاهوت المعاصرين وهو الأستاذ كولسون عضو مجمع العلوم الملكى وصاحب كتاب « العلم والعقيدة المسيحية » ومدار الرأى فيه كله على هذه الفكرة سواء فيما يرجع الى مذهب التطور أو الى غيره من مذاهب العلم الحديث

سلسلة الخلق العظمى

سلسلة الخلق العظمى مذهب يوازى مذهب التطور ، ويتمشى معه فى معظم الطريق .. ولكنه لا يبتدىء معه من البداية ولا ينتهى الى الغاية ..

وصفوة القول بسلسلة الخلق العظمى ، أن الوجود درجات متفاوتة فى ترتيب الضعة والشرف ، تبتدىء من المادة الأولى التى لا صورة لها وترتفع الى مرتبة الوجود الالهى الذى تمحض له العلم والخير ، فهو علم لا يعرض له الجهل ولا يجتنب عنه شر ، وخير لا بشروبه الشر ولا يقح له فى ارادة ..

وشأنه السلسلة العظمى قائمة فى انتظامها لكل خاصية من حلقات الترتيب . وكل قابلية من قابليات الصفات والاعراض ، فلا تنزع السلسلة المتنامية من احدى هذه المراتب ، ولا يعقل أن توجد فى الامكان قابلية لشيء قل ولا توجد فى الواقع من حلقة من حلقات الوجود السفلى أو العلوى ..

* * *

والرائد الأكبر لهذا المذهب بين الأقدمين أفلاطون الملقب بالحكيم الاولى ، فهو الذى وضع هذا المذهب توضيحا فلسفيا وبناء على حجة عقلية ، وحسب ان الاله - وهو خير محض - يأبى له كرمه أن يضمن على شيء ، كأننا ما كان ، بنعمة الوجود .. فمهما يبلغ من حقارة شأنه فهو مستحق لحصته من الوجود فى مرتبته من الخلق ، ومستحق لأن يصعد من هذه المرتبة الى ما فوقها بنعمة من الله وبما ركب فى طبائع الأشياء من شوق الى الكمال

والراجح أن هذا المذهب وصل من الهند الى حكماء اليونان من طريق المبادات السرية التى عرفت باسم النحل « الأورفية » وأسبق ناقله من كبار الفلاسفة اثنان هما : فيثاغوراس وامبدوقليس ، وكلاهما يقول بتناسخ الأرواح ، ويتنطس فى معيشتهم على نظام الرياضة الصوفية والرياضة البدنية ، وبين أتباعهما من كان يجمع بين التقشف ومراس الرياضة البدنية ويفوز فى مبارياتها العامة ..

وقد كان فيثاغوراس يتجنب أكل اللحوم ، ويقسم الأغذية الى صالحة للروح وغير صالحة لها لأنها بهيمية ، وكأنه كان يحرم أكل اللحوم لأنها مأكلة السباع ويحرم أكل الفول وما اليه لأنه مأكلة البهائم ، ويحسب أن الأرواح تنتقل بين الأجساد لترتفع أو تهبط في درجات الخلق ومراتب البهيمية والروحانية ، وله من الأقوال المقتضبة ما يشبه مذهب الهند في الدورات الأبدية التي يحسبونها بعدد مقدور من ألوف السنين ، مع قسمة السنين الى شمسية وكونية

* * *

وجاء بعده امبدوقليس ، فقسم درجات المادة واعتبر العناصر الأربعة أشرفها وأعلىها ، وسماها بالجذور قبل أن تعرف باسم العناصر وتسمى بعنصر النار وعنصر الهواء وعنصر الماء وعنصر التراب

والعالم عند أصحاب القول بالسلسلة العظمى ، عالمان : كبير وصغير . فالعالم الكبير Macrocosm هو الكون كله بما اشتمل عليه من كائنات علوية وسفلية ومن مراتب روحية وبهيمية ومادية ، والعالم Microcosm الصغير هو الانسان ، لأنه يحتوى في تكوينه كل عنصر وكل مادة وكل درجة ، ويتقبل الارتفاع الى صفات العلم والخير ، أو صفات العقل والتدبير التي تمت للاله على أكملها وأرفعها ، كما يتقبل الهبوط الى مرتبة البهيمية وما دونها ، وفي الانسان شيء من خصائص الأجسام المسادية ، وشيء من خصائص الأجسام النباتية ، وشيء من خصائص الأجسام الحيوانية ، وشيء من خصائص الروح الذي يكون للملائكة بغير جسد ، وشيء من المعرفة التي يقترب بها من الصفات الالهية .

وقد انتقل مذهب السلسلة العظمى من الهند واليونان الى العرب ، وانتقل من العرب الى متصوفة الأوربيين ، وكان من تلاميذ الحكمة العربية رجل تسنم عرش البابوية في آخر سنة قبل نهاية القرن العاشر (٩٩٩ م) وهو سلفستر الثاني ، وظهرت آثارهما في أقوال القديس توما الاكوييني والبرت الكبير « ويرى الاستاذ آسين بلاسيوس الاسباني أن نزعات دانتي الصوفية وأوصافه لعالم الغيب مستمدة من محيي الدين بن عربي بغير تصرف كثير ، ومن المعلوم أن أول الفلاسفة الصوفيين من الغربيين - جوهان

اكهارت الالماني - نشأ في القرن التالي لعصر ابن عربي ودرس في جامعة باريس ، وهي الجامعة التي كانت تعتمد على الثقافة الأندلسية في الحكمة والعلوم (١) »

ولعل اكهارت هو أسبق المقتبس من المتصوفة الغربيين لقول ابن عربي ، ان الله هو الوجود الحق وان كل ما عداه من موجود فوجوده عارية ، وهو قول في جملته يعيد الى الذهن قول أفلاطون ان الله هو مقياس كل حقيقة ردا على بروتغوراس Protogoras الذي كان يقول : ان الانسان هو مقياس الوجود ، وان الله أنعم على الانسان بالحياة « الزمنية » لأن الزمن محاكاة للوجود الأبدي الذي اختص به الاله ذون سواه ، وليس بين القوانين تناقض في النهاية ، لأن أفلاطون يعود فيجعل العقل - صفة الله العليا - درجة يبلغها الانسان ولا يدركها من دونه من المخلوقات ، ولكنه قد يعلو بالعقل فوق مرتبة المادة التي تمتزج بالعقل في تكوين الانسان ..

وقد كان لفلسفة أرسطو نصيب غير قليل من الأثر في توجيه عقول الأوروبيين منذ القرون الوسطى الى مذاهبهم أو أقوالهم ، في سلسلة الوجود العظمى ، لأنه رتب الموجودات على حسب نصيبها من الحس ، وقارب بين النبات والحيوان ، فجعلهما مشتركين في « النفس » النامية ، وكاد أن يجعلها رتبة من رتب العقل يتوسط فيها النبات بين الجماد والحيوان ، ولم يكن في تصنيفه للكائنات فاصل حاسم بين الحيوان وما دونه لأن « التولد الذاتي » كان في تقديره من الممكنات ، وانقضت بعده القرون الوسطى وأوائل العصر الحديث قبل أن تظهر للعلماء استحالة تولد الحيوان من غير الحيوان

وتقبل اللاهوتيون الأوروبيون فكرة السلسلة العظمى ، كما وصلت اليهم من مفكرى العرب ومتصوفتهم ، فلم يجدوا فيها تناقضا ينكرونه بين القول بخلاص الانسان بالايمان وقول سقراط وأفلاطون أن العقل هو الصفة الإلهية التي يتحلى بها الانسان ويعلو بها من أفق الحلائق الدنيا الى أفق النعمة

(١) أثر العرب في الحضارة الأوروبية للمؤلف

الالهية ، وان الانسان بمعرفته للأشياء يحتويها ويملكها ويؤمن على تدبيرها محاكاة لقدرة الله على تدبير الخير لمخلوقاته ، فان التناقض بين خلاص الانسان بالايمان وخلاصه من أوهام المادة بالعقل والمعرفة ، يبطل ويزول متى اعتقد المفكر أن العقد الرشيد سبيل الى الايمان بالله والتعويل على البركة الالهية في تطلعه الى النجاة والخلص

ولم يصطدم الرأيان من بعض الجوانب الا بعد ظهور فلسفة ابيلارد (١٠٧٩ - ١١٤٢ م) الذي فسر السلسلة العظمى بأنها لازمة ضرورية تستوعب كل الممكنات ، فيستحيل أن يوجد شيء غير ما هو موجود ، لأن الخالق في علمه وقدرته يعلم جميع الممكنات ولا يعجز عن تحقيق ممكن منها يتعلق بعلمه وارادته ، فأنكر عليه معاصره برنارد دي كليرفو (١٠٩١ - ١١٥٣) داعية الحرب الصليبية الثانية ذلك التفسير ، وقال انه يناقض ما ينبغي أن نؤمن به من غضب الله على الخطيئة والرذيلة ومن انعامه بالخلص على الخطاة ، وكان القديس توما الاكوينى (١٢٢٦ - ١٢٧٤) يميل الى تأييد برنارد في اعتراضه على تفسير ابيلارد ، ويكاد يعيد ردود الغزالي على ابن رشد في مثل هذه المناقشة ، فيقول : ان خلق الله لهذه الموجودات على سنتها التي أودعها فيها لا ينفي قدرته على خلق غيرها زائدا عليها ، ولا ينفي قدرته على خلقها مرة أخرى في صورة غير هذه الصورة ، فليس انتظام سلسلة الخلق مانعا أن تنتظم لها حلقات غير هذه الحلقات وسلسلة غير هذه السلسلة مع استيعاب الله لجميع الممكنات ، لأن التبديل في الممكنات غير مستحيل .

وجاء بيكوديو ميرندولا (١٤٦٣ - ١٤٩٤) Pieo della Mirandola

فقال بما كان يقوله المتصوفة المسلمون من قبول الانسان لأرفع المراتب وأدناها ، وان كل مخلوق قد يلتزم مكانا من سلسلة الخلق لا يعدوه ما فوقه ، الا الانسان . فانه لا يتقيد بمكان من السلسلة العظمى غير المكان الذي يرتضيه لنفسه ، علوا الى مرتبة الملائكة المقربين ، أو سفلا الى مرتبة البهائم والحشرات

وعاد البحث في مكان الانسان بعد كشف كوبرنيكوس لدوران الأرض

حول الشمس ، وتجدد المناقشة عن مركز الخليقة ، وعن مكان الانسان على هذا المركز المختار . . . قد يجوز أن يكون للعالم الأرضى نظراء له من العوالم السماوية وأن يكون لتلك العوالم سكانها من الخلائق العقلاء ، ولكن هذه المناقشة لم تززع أساس الفكرة التى تسلسل الموجودات من أدناها الى أعلاها فى العالم المعروف ، وفى كل عالم يمكن أن يعرف قياسا عليه ، ظلت فكرة السلسلة العظمى غالبية على الباحثين فى مركز الانسان من الخليقة ، وقال بها فلاسفة الشعراء كما قال بها فلاسفة الحكمة والسدين الى زمن قريب ، وعلى أساس هذه الفكرة نظم الشاعر الانجليزى اسكندربوب (١٦٨٨ - ١٧٤٤) قصيدته الكبيرة التى سماها مقالة عن الانسان ، وقال فيها يخاطب الانسان

« اعرف اذن نفسك ، ولا تدع الاحاطة بعلم الله

» ان دراسة الانسان المنلى هى الانسان

» قائما على برزخه هذا من الحالة الوسطى

» مغلوقا فى ظلمة ، عظيميا فى خشونة

» أعلم من أن يكون « شكوكيا » لا يدري

» وأضعف من أن يكون « رواقيا » يصبر

» معلقا بين العمل والراحة

» معلقا بين الالهية والبهيمية

» معلقا يتردد بين ايثار عقله أو بدنه

» يولد ولكن ليموت ، ويعلم ولكن ليخطئ

» يحيط به الجهل نقص علمه أو زاد

» ويختلط أمره فى فوضى من الفكر والشهوة

» وهو هو الذى يسىء الى نفسه أو يتجنب الاساءة

» مغلوقا نصفه ليرتفع ونصفه لينحدر

» سيدا لجميع الأشياء وفريسة لها جميعا

» وهو الحكم الوحيد فيما هو حق وباطل ، ولكنه يضطرب فى خطأ

» دائم

» ولا يزال فخر الخليقة ، وسخريتها ، ولغزها الغامض ، فى آن «

وهذا هو مكان الانسان الأوسط ، بين حلقات هذه السلسلة العظمى
التي اذا انكسرت احداها وقع الخلل فى سائرهما »

وجاء بعده شاعر آخر هو جيمس تومسون صاحب قصيدة الفصول
١٧٠٠ - ١٧٤٨) فنظم الوجود من طرفى هذه السلسلة العظمى « بين
الكمال الذى لا حد له ، وبين حافة الهاوية السفلى والعدم المرهوب »

وتوقف البحث فى سلسلة الخلق العظمى بعض التوقف بين أواخر
القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر ، ولكنه لم ينقطع . ولا نعتقد
أن الانقطاع عن البحث يعرض لمسألة الانسان ومركزه من الكون فى زمن من
الأزمان ، وانما انقطع البحث فى مذهب التطور وفى علوم الاحياء عامة وعدم
الانسان خاصة على هذا النطاق الواسع الذى يشمل اليوم علم الحياة أو
« البيولوجى » وعلم الحيوان « الزولوجى » وعلم الأجناس البشرية
« الاثنولوجى » وعلم الانسان « الأنثروبولوجى » عدا مباحث شتى تتصل
بالمعلومات العامة عن الانسان ومركزه بين الكائنات فى آراء علماء الطبيعة
وآراء الفلاسفة والمفكرين .

ونعود الى السلسلة العظمى عند الحرب الذين نقلوا أهم مصادرهما الى
الأوربيين ، فنقول انهم عرفوها - كما تقدم - من مصادر شتى ولم
يجعلوها دستورا عاما يحيط بالموجودات ويقرر للانسان مكانه على مذاهب
القاتلين بتلك السلسلة ، لأن مكان الانسان كما ورد فى آيات القرآن الكريم
اغناهم عن القول بمكان له ينسبه الى سلسلة الخلق ، ويلحقه بها لزاما على
طريقة الأقدمين فى إلحاقه بغير الخلائق الآدمية .

وانما عرفت لحكماء العرب أقوال تشير الى ترتيب السلسلة فى مواضع
متفرقة من بحوث العلم أو الدين .

ومنها ترتيب آفاق الموجودات كما تقدم فى فصل « التطور قبل مذهب
التطور » من هذا الكتاب

ومنها الكلام على « النفس والروح والعقل » والفرقة بين مراتبها .

ابتداء من النفس التي كان أرسطو يجعلها قوة مشتركة في الخلائق النامية ،
الى الروح التي تعلو على النفس في هذا الاعتبار ويمتاز بها الانسان عما دونه ،
الى العقل وهو الصفة الالهية التي يتحلى بها الانسان ويقترب بها من أفق
الخالق أو المحرك الذي تقترب منه الموجودات بمقدار حركتها اليه ، وأشرفها
حركة الانسان الى المعرفة وشوقه الى الكمال

* * *

وعرف القول بالعالم الأكبر والعالم الأصغر بين المتصوفة ، كما جاء في
آيات تنسب الى الامام على بن أبى طالب ولم تتحقق نسبتها اليه ، ومنها عن
الانسان :

دواؤك فيك وما تشعر
وداؤك منك وما تفكر
وتزعم انك جرم صـ
ير ، وفيك انطوى العالم الأكبر

* * *

ووافق القول بنجاة الانسان بعقله ما ورد في آيات القرآن الكريم من
الأمر بالتفكير والتدبر ، فقال به كثيرون من حكماء الاسلام ثم فرق
المتصوفة والمتنسكون بين ضربين من المعرفة أحدهما يستقيم بصاحبه على
سنن الهداية ، والآخر يلتوى به دون قصد السبيل ، وكذلك قال ابن
مسكويه بعد كلامه المتقدم في فصل آخر : « ان هذا التشوق ربما ساق
الانسان على منهج قويم وقصد صحيح حتى ينتهى الى غاية كماله وهى سعادته
التامة . وقلما يتفق ذلك . وربما اعوج به عن السمت والسنن ، وذلك
لأسباب كثيرة يطول ذكرها . . ولا حاجة بك الى علمها الآن وأنت فى تهذيب
خلقك . فكما أن الطبيعة المدبرة للأجسام ربما شوقت الى ما ليس بتنم
للجسم الطبيعى لعل تحدث به وآفات تطرأ عليه بمنزلة من يشتاق الى أكل
الطين وما جرى مجراه ، مما لا يكمل طبيعة الجسد بل يهدمه ويفسده - كذلك
أيضا النفس الناطقة ربما اشتاقت الى النظر والتمييز الذى لا يكملها ولا

يشوقها نحو سعادتها بل يحركها الى الأشياء التي تعوقها وتقصّر بها عن كمالها ، فحينئذ يحتاج الى علاج نفساني روحاني كما احتاج في الحالة الأولى الى طب طبيعي جسماني ، ولذلك تكثر حاجات الناس الى المقومين والمنفعين والى المؤدين والمسددين . فان وجود تلك الطبائع الفائقة التي تنساق بذاتها من غير توقف الى السعادة عسرة الوجود لا توجد الا في الأزمنة الطوال والمدد البعيدة . وهذا الأدب الحق الذي يؤدينا الى غايتنا يجب أن نلاحظ فيه المبدأ الذي يجري مجرى الغاية ، حتى اذا لحظت الغاية تدرج منها الى الأمور الطبيعية عن طريق التحليل ثم يبتدىء من أسفل عن طريق التركيب وينبغي أن يعلم أن كل انسان معد نحو فضيلة ما ، فهو اليها أقرب وبالوصول اليها أخرى ، ولذلك تصير سعادة الواحد من الناس غير سعادة الآخر ، الا من اتفق له نفس صافية وطبيعة فائقة فينتهي الى غايات الأمور والى غاية غاياتها ، أعني السعادة القصوى التي لا سعادة بعدها .

ويرى المتصوفة أن المعرفة معرفتان كما يرى الحكماء من أمثال ابن مسكويه ، ولكنهم يقسمونها الى معرفة لدنية ومعرفة كسبية ، ويقصدون بالمعرفة الدنية ما يدركه الانسان بالالهام والاستشراق ويهتدى اليه بالرياضة النفس وقمع الجسد ، وهي معرفة غير معرفة التعلم والدراسة ، على حد قول سعيد بن أبي الخير فيما روى من كلامه عن ابن سينا « ان ما يرى على ضوء المصباح وصل اليه هذا الأعمى بعكازه »

ويتممه قول ابن سينا عن الحدس الصادق أنه حالة يقابل بها عقل الانسان مصدر العقول جميعا ، فيدرك بالالهام والتوفيق ما ليس يدرك ابتداء بالدرسي والبرهان

* * *

وفي غير هذا الفصل بيان لمذهب حجة الاسلام الامام الغزالي في حكمة الموجودات وحكمة خلق الانسان بين خلأق السماوات والأرضين ، وهو أمثل ما يقال عن سلسلة الخلق العظمى بتفسير أهل السنة ، على هدى القرآن الكريم . . .

الإنسان في علم الحيوان

وفي علوم الأجناس البشرية

الإنسان من الفقاريات Vertebrates ، ومن الأوائل Primates بين
الفقاريات . . .

وهذه الأوائل تسمى أحيانا بالبشرى Anthropoids وتشمل الإنسان
والقردة العليا ، وهي الغوريلا ، والأورانج ، والشمبانزي ، والجيون
ويختص الإنسان من بين البشرى باسم يميزه وهو اسم الأنس
Hominidae كما يختص القردة على عمومها باسم النسانيس Simidae .
فيفرقها هذان الاسمان حيث يجمعها اسم البشرى

ويرى بعض علماء الأحياء أن اسم الأنس يطلق على الكائن الذي وجدت
بقية من جمجمته في حفائر جاوة وأطلق عليه الدكتور دبو Dubois
الذي وجد تلك البقية اسم Pithecanthropus Erectus لدلالة بقاياه على
قامته وامتيازه باتساع الدماغ على البشرى ، ولكن الرأي الغالب اليوم
أن النوع الانساني بمزاياه التي بقيت له الى اليوم مخالف في الخصائص
الانسية لصاحب تلك الجمجمة ، وان هناك اختلافا غير قليل بين أناسي
الحفائر من قبيلة وبين الإنسان الذي يطلق عليه اليوم اسم الحيوان الناطق
أو العارف أو المميز Home Sapiens من الكلمتين اللاتينيتين « هومو » بمعنى
بشر - و « سابين » بمعنى ذى فهم أو ذى ادراك أو ذى كياسة

* * *

وننقل هنا خصائص النوع الانساني في علم الحيوان ، كما أثبتتها
أقدم الكتب العلمية التي بحثت مذهب التطور باللغة العربية ، وعنت
بايراد أوجه الاعتراض عليه وأوجه الاختلاف بين الإنسان وغيره من
البشرى من الوجهة التشريحية كما قررها علم الحيوان قبل نهاية القرن
التاسع عشر ، ونعني به كتاب « تنوير الأذهان في علم حياة الحيوان
والإنسان » لمؤلفه الدكتور بشارة زلزل - وقد صدر الاذن بطبعه من

مظارة المعارف بالآستانة بتاريخ ١٣ رجب سنة ١٢٩٧ ونم طبعه بعد ذلك بمطبعة مجلة الجامعة فى الاسكندرية

قال المؤلف فى الصفحة (١٦٧) من المجلد الأول : « فاذا نظر الى الانسان على سبيل المقابلة بتلك القروء التى هى لا شك أقرب الحيوانات اليه ، يرى أن الانسان ماش منتصب القامة على قدميه ، لأن سلسلة ظهره مقوسة فى العنق وفى الظهر وفى الصلب ، وليس للقردة شئ من ذلك . وعلّة ذلك على ما قال بعض المدققين زيادة نمو الدماغ ، لأنه يؤدى الى كبر القحف ، فتتغير الجلسة بدليل عدم استوائها فى الأطفال . وبناء عليه تكون موازنة الرأس للبدن سببا لاستواء الجمجمة على العمود الفقرى ، وقالوا ان الأقواس الثلاثة المذكورة تكون فى المتمدنين أوضح مما هى فى المتوحشين . وعلى الجملة فان موازنة الرأس مع البدن فى أكثر الحيوانات اللبونة تناط بالأربطة العنقية ، وهى قوية جدا فيها وفى القردة بالعضلات المتينة التى تندغم فى القذال والسناسن (النتوءات الشوكية) وهى فيها أطول وأغلظ مما فى الانسان بضعفين ، ويتوقف عليها وعلى الرأس حفظ الرأس على الوضع الأفقى فلا يضغط على الصدر لذلك ، وليس الأمر كذلك فى الانسان لأن ثقل جمجمته يتكافأ مع ثقل البروز الوجهى فيستوى الرأس على الهامة بدون أن يكون للعضلات والأربطة العنقية الا المحافظة على الموازنة المذكورة ومقاومة ميل الرأس الى الأمام . ولذلك كانت الأربطة فى الانسان ضعيفة . قال الأستاذ بروقا Procea وتابعه كثيرون ، ان السبب فى انتصاب قامة الانسان واستوائه ماشيا على قدميه انما هو نمو الدماغ ، لأن هذه المشية تجعل اليدين مطلقتى الحركة والنظر متجها الى الأفق . وطفل الانسان يشبه الدبابات ، لأنه عديم الأقواس الفقرية فلا يظهر القوس العنقى الا متى ابتدأ الطفل أن يضبط رأسه فى الجلسة التى يعود عليها ، وذلك فى الشهر الثالث من عمره . وفى السنة الثانية غالبا يتكون القوس الظهرى من جراء فعل العضلات الظهرية والصلبية للقطر السفلى للعمود الفقرى ، وذلك اذ يبتدىء الطفل أن يدرج

» وبالجملة فان الخاصة التى يصدر عنها حسن تقويم الانسان ويتوقف عليها امتيازهم على سائر الحيوان ، وتفاوت بحسبها مراتب الأمم فى المدنية

إنما هي نمو الدماغ وزيادة حجم الجمجمة ، وقد أجمع الباحثون على أن معدل وزن الدماغ في الأوربيين يكون متوسطه في الرجال ١٣٦٠ غراما ، وفي النساء ١٢٠٠ غرام ، وأعلاه ١٦٧٥ غراما ، وأدناه ١٠٢٥ غراما . وما نقص عن ذلك يدل على البلاهة لعله أو آفة

« والقرد الشبيهة بالإنسان أكبر الحيوانات دماغا ، ومعدل وزنه المتوسط فيها ٣٦٠ غراما، وغاية ما بلغه في الأورانج ٤٢٠ غراما ، وقد عد ذلك من الشواذ . وعلى قدر نمو الدماغ تزداد سعة القحف ويقل البروز الوجهي ، والفرق بين الإنسان والحيوانات من هذا القبيل أوضح من أن يبين ، فإذا نظرت إلى جمجمة إنسان من الأعلى لا ترى البروز الوجهي بخلاف ما إذا نظرت إلى جمجمة القردة وغيرها من الحيوانات . وإذا نظرت إلى جمجمة القرد من جانب ، ترى الوجه شاخصا إلى الأمام يؤلف خطا مستطيلا ، وذلك من الخصائص البهيمية . ويستدل على معرفة درجة هذا البروز بالزاوية الوجهية . وفضلا عن ذلك فإن الجزء الوجهي للعظم الوجني قليل النتوء في الإنسان بخلاف ما هو عليه في القرد ، وإذا نظرت إلى الجمجمة من وراء لا ترى الثقب المؤخرى في جمجمة الإنسان وتراه كله أو قسما منه في جمجمة القرد . وهذه الأعراف الدالة على الشراسة والصفات البهيمية في القرد غير موجودة في الإنسان ، وهي لازمة فيها عن نمو العضلات المضغية التي يترتب عليها تحريك الفكين الضخمين ، وعن نمو عضلات القذال التي يتوقف عليها اسناد الرأس على العنق ، ومعلوم أن قحف الحيوان الصغير لا يتسع لاندغام هذه العضلات فيه ، فحيث وجدت اضطرت النسيج العظمي في إبان نموه أن يهيئ لها مندغما ، فنشأ عرفا . والدليل على ذلك أن هذه الأعراف لا توجد في القرد الصغيرة . ومثل ذلك يقال عن النتوءات الشوكية البارزة في عنق الغول ، ولما كانت هذه الأعراف والنتوءات أصغر في الأوران مما هي في سائر القرد لم يتوازن رأسه على بدنه ، فيرى الحطم الثقيل مدلى على صدره ، ولذلك خص بالأكياس الحنجرية تلطيفا لضغط خطمه على مجرى الهواء . أما الجيبون فخطمه صغير وأعرافه قليلة النتوء والأكياس الحنجرية غير موجودة فيه ، فهو أقرب القرد إلى الإنسان ولكن طول ذراعيه يبعده كثيرا عن الإنسان ، لأنه يتوكأ عليهما في مشيه كما يتوكأ الإنسان على هراوته . »

« ومن الخصائص الفارقة بين الإنسان والقرد ابهام الرجل ، فهو في القرد أشبه بابهام اليد لأنه يقاوم كلا من الأصابع ويلامسها ، وهو ليس كذلك في الإنسان ، لأنه يناسب فيه حالة المشي وانتصاب القامة كما أنه يناسب في القرد حالة التسلق والامساك

» ومن هذه الخصائص تباين شكل الأسنان وحجمها .. فأسنان الإنسان بالنسبة الى جسده أصغر مما هي في القرد ، وإذا تأملت في الصورة راعتك من منظر الغول أنيابه .. أما النواجذ والطواحن في هذه الحيوانات فكبيرة جدا ، بالنسبة الى طول القسم الوجهي من الجمجمة .. وما عدا ذلك فان وضع الأسنان في سنخ الإنسان على نسق منتظم خلافا لما يرى في القرد حيث يتخلل نابي الفك العلوي وثناياه خلاء تتداخل فيه أسنان الفك ... والخصائص المميزة للإنسان تزداد وضوحا بتقدم المدنية وال عمران ، لأن اختلاف طرق المعاش يؤدي الى تنوعها فتبتعد عن الحالة الطبيعية كما ترى في أقواس العمود الفقري ، فانها في المتمدنين أكثر وضوحا مما هي في المتوحشين »

وترجع علوم الإنسان الى علم الحيوان لدراسة تواريخ البشر الاجتماعية ، كما ترجع اليه أحيانا في دراسة تقدمهم الثقافي منذ وجد الإنسان بخصائصه المعروفة للحيوان الناطق Homo Sapiens وقبل وجود هذا الإنسان في العصور السحيقة التي استخدمت فيها الآلات على شيء من الحشونة البدائية .. ويشيع - من أجل هذا - أن هذه العلوم قد تأثرت بمذهب التطور كما بسطه لامارك ، وكما بسطه دارون من بعده ، ولكن الأصح أن المعلومات المتشعبة التي تجمعت من درس الحفائر وطبقات الأرض ورحلات الجغرافيين واللغويين بين أرجاء العالم القديم والعالم الحديث .. قد كان لها أثرها البين في مذهب التطور وفي سائر العلوم الإنسانية المتعددة ، ومنها علم السلالات وعلم الإنسان وعلم الاجتماع وعلم النفس وعلوم المقارنة بين اللغات

ومحصل هذه المعلومات المتشعبة بين العلوم الإنسانية أن البشر وجدوا وانتشروا على جهات متقاربة من العالم القديم منذ العصر « الميوسيني »

Miocene قبل نحو مليوني سنة ، وانهم كانوا يومئذ على حالة متوسطية بين الحيوان الناطق وطبقة بشرية دون هذه الطبقة ، ثم تميزت خصائص الانسان بعد ابتداء العصر الجليدى منذ نحو مليون سنة ، ولكن الانسان الذى استخدم الآلات وصاغها من العظام والحجارة لا يعرف له تاريخ جلى قبل مدة تتراوح فى تقدير العلماء بين مائتى ألف ومائة ألف سنة . وكانت بداية انتشار الجماعات الانسانية بين القارات الثلاث منذ العصر الحجري الأول ، ثم تلاء العصر الحجري الحديث الذى تميز فيه الانسان بأكبر مزاياه ، وهى الحياة الاجتماعية والقدرة على استخدام الآلات والنار وتسخير سائر المخلوقات ، وتدجين الأوابد على مراحل متتابعة ، أولها مرحلة تدجين الكلب للاستعانة به فى الصيد ، وتأتى بعدها مرحلة تدجين الماشية والحمار والحصان للاستعانة بها فى الزراعة وفى الانتقال من مكان الى مكان حيث يوجد الكلاً والماء

وفى هذه المراحل ملك الانسان زمام الخليقة ، ويبلغ المنزل التى استحق بها أن يسمى نفسه سيد المخلوقات ، وتمهد له سبيل السيطرة على الحيوان والنبات وظواهر الطبيعة حينما احتاج اليها ، ويعتقد بعض علماء السلالات البشرية ان الانسان تقدم شأؤه الأول فى صراعه للحيوان وظواهر الطبيعة ، ثم تقدم شأؤه الثانى - والأهم - فى صراعه بينه وبين أبناء نوعه ، واتسع الفارق بين ملكاته فى شأؤه الأول وملكاته فى شأؤه الثانى بمقدار اتساع الفارق بين الحيلة التى تلزم للتغلب على الحيوان والحيلة التى تلزم للتغلب على أمثاله من الآدميين ، ثم تلزم لابتنادع وسائل أخرى للتغلب كلما تساوى الناس فى وسائلهم المشتركة

وقد كان الناس قبل شيوع الآلات وتدجين الحيوانات سلامة واحدة ، لا تختلف فى الملامح والألوان ولا يظهر بين بقاياهم الأثرية ما يدل على فارق عنصرى كالفوارق التى تختلف بها اليوم سلالات البشر من سكان العالمين القديم والحديث .

* * *

ولكن ابتداء التغالب بين البشر فرق مواقع السكن ، وفتح الطريق لاختلاف السلالات على حسب الاقليم والمناخ والقدرة العقلية على الاحتفاظ

بالمسكن أو على الهجرة منه الى غيره ، ويعزى الى هذا التفرق ظهور السلالات الأربع المشهورة . . . وهي التي تسمى عند علماء السلالات بأسماء مختلفة ، وأوضحها أسماء ألوان البشرة ، وهي البيضاء ، والسمراء ، والصفراء ، والسوداء ، وقد أحصى بعض العلماء أربعة وثلاثين لونا تتراوح من الشقرة الى السواد الفاحم ، ولكنها كلها تثول الى تلك السلالات الأربع عند التمييز بينها بأشكالها وملامحها الجسدية

وأبرز الفوارق بين السلالات - غير لون البشرة - شكل الشعر والأنف والفك وطول القامة . وقد تعرف القرابة بين السلالات التي انفصلت بين القارات بما بينها من التقارب في شكل الشعر دون غيره . . فيرجحون أن سكان أمريكا الأصلاء وسكان آسيا الشرقية من أصل واحد ، لما بينهم من التشابه في استقامة الشعر وخشونته ولونه الضارب الى السواد . وقد أمكن اليوم تعليل أبرز الفوارق بين سلالات البشر بأسباب المناخ والاقليم ، فنسب الأنف الأفطس والجلد الأسود الى فعل الحرارة ، كما نسب الأنف الأقنى الطويل والجلد الأبيض الى برد الاقليم واحتياج سكانه الى وقاية الرئة واستغنائهم عن الصبغة الجلدية حيث يلفظ وقع الأشعة على البشرة . . ويمثل هذا السبب يعللون اختلاف الشعر بين النعومة والتموج وبين الحسونة والتجعّد ، وبين الشعر الحريري والشعر الصوفي في الشكل والملمس ، ولا يصعب تعليل خاصة عنصرية واحدة بعلة - أو مجموعة من العلل - ترجع الى المناخ وأحوال المعيشة

الا أن الفوارق الفكرية أصعب من هذه الفوارق الجسدية تعليلها بأسباب المناخ وأحوال المعيشة ، وأبرزها فوارق اللغة لأنها قابلة للضبط والتقسيم ، أو هي أدنى الى التقسيم بالضوابط والعلامات من فوارق التفكير والبواعث النفسية ، وقد تكون علامات اللغة مما يستعان به على جلاء الفوارق الفكرية وفوارق الشعور والاعتقاد

واللغات - في تصنيف بعض علمائها - قد تنقسم على حسب الأجناس والسلالات التي تتكلمها ، ولكنه تقسيم يقع فيه الاختلاط لاشتراك الأمم في لغة واحدة ، أو عائلة لغوية واحدة ، مع انتمائها الى أصول متباعدة في أجناسها وعناصرها ، وخير من هذا التقسيم أن تقسم اللغات على حسب

تكوينها وتكوين الكلمات وقواعد النحو في مفرداتها وتراكيبها ، وهو تقسيم يضبط الفوارق بينها ضبطا كافيا للموازنة بينها والمقابلة بين عوامل التقدم وعوامل الجمود والتأخر في تراكيبها وتعيراتها

وتنقسم اللغات من حيث التكوين الى لغات النحت ، وهي التي تتكون فيها الأسماء والأفعال والصفات بإدخال المقاطع الصغيرة عليها أو إلحاقها بها ، ولغات التجميع ، ولغات الاشتقاق لغات النحت هي التي تتكون فيها الأسماء والأفعال والصفات بإدخال المقاطع الصغيرة عليها أو إلحاقها بها ، وتسمى هذه اللغات بالغروية في اصطلاح الأوربيين Agglutinative:

ولغات التجميع هي اللغات التي يقع فيها النحت ويعمل فيها التنعيم عمله في اختلاف المدلول مع الزيادات التي تدخل على الكلمات أو تضاف إليها ، ومن فروع هذه اللغات ما تتكون أسماؤه وأفعاله في جملة تتألف من عدة مقاطع مرتبة أو غير مرتبة على نسق واحد في جميع الكلمات ، ويغلب على اللغات التي تتكون هذا التكوين أن تسمى بالمجمعة Polysynthetic مع وصفها بالغروية الى جانب التجميع

ولغات الاشتقاق هي اللغات التي يعم فيها الفعل الثلاثي في كل مادة ، وتجرى قواعد العرف فيها على المخالفة بين الأوزان بحسب معانيها ، ويكثر فيها اختلاف الحركة في أواخر الكلمات على حسب موقعها من الجملة . . .

* * *

ويشيع النحت في اللغات الهندية الجرمانية ، كما يشيع التجميع في اللغات المغولية ولغات القبائل الأمريكية الأصلية الاشتقاق . . . فهو من خصائص اللغات السامية ، وتكاد اللغة العربية أن تنفرد من بينها بعموم الاشتقاق وإطراده مع مراعاة الحركة على أواخر الكلمات حسب مواقعها من الجمل المفيدة . . .

وربما اتفق اللغويون على قواعد عامة ، عملت في تطور هذه اللغات جميعا ولا تختص بها لغة منها دون سائرهما . . . ومن هذه القواعد العامة أن الكلمات الانفعالية التقليدية أسبق من الكلمات الارادية الفكرية ، ويريدون بالكلمات الانفعالية ما يصدر عن الانسان عفوا من الأصوات

والصيحات التي تعبر عن الفرح أو الفزع أو الدهشة ، وما تكون الكلمة فيه أحيانا من قبيل المحاكاة الصوتية Onomatopaeic كاسم البلبس . والككو ، وألفاظ الدق والقطع والوسوسة وما جرى مجراها

ويريدون بالكلمات الارادية الفكرية كل ما يقصده المتكلم ويجري فيه على القياس والاستعارة وإطلاق القاعدة الواحدة على المتشابهات لفظا أو لفظا ومعنى . .

وأكمل اللغات على سنة التطور والتقدم في الثقافة تلك اللغات التي انتظمت قواعدها الصوتية Phonologie وقواعدها الصرفية Morphologie وقواعد التراكيب والعبارات Syntax ويضاف الى الظواهر الصوتية والصرفية والعبارية في قياس تطور اللغات ظاهرة التمييز والتخصيص في الصفات اجمالا وفي المفردات على التعميم ، كالتمييز بين المذكر والمؤنث والجماد ، وبين المفرد والمثنى والجمع ، وبين جمع القلة وجمع الكثرة ، وبين الصفات العارضة والصفات الملازمة ، وهي جميعها من المزايا التي لا يحق لكاتب اللغة العربية أن يمر بها عرضا اذا جاز ذلك لمن يكتفى بسرد العلامات اللغوية ويغفل دلالتها عند تطبيقها على لغته وقواعدها

* * *

ففي صدد الكلام على التطور الانساني ، وعلى تطور الانسان الناطق بصفة خاصة ، يحق للباحث أن يشير الى دلالة الدراسات اللغوية على مكان اللغة العربية من التطور وتحقيق الخاصة الانسانية الكبرى ، وهي خاصة النطق والتعبير

فقيام اللغة على القواعد الفكرية دليل لا شك فيه على سبق اللغة . وتقدمها على لغات الارتجال الجراف في وضع الكلمات ، سواء بالمحاكاة الصوتية أو بالتكرار على غير قياس ، وشيوع القاعدة في فعل كل مادة وفي تصريف الأسماء والصفات منها دليل على سبق التفكير في التعبير وتعميمه على الأحداث والمعاني غير موقوف على أصوات الانفعال والمحاكاة ، ويتبع ذلك شيوع الاستعارة وإمكان الجمع بين الوضع الحقيقي والوضع المجازي في كلام المتكلم لتوسيع المعاني وبناء الكلمات على المضاهاة بين المدلولات

وفي قدم الإنسان الناطق Homo Sapiens أقوال متفرقة يأخذ كل فريق من علماء الأجناس البشرية بقول منها ، ويبتعد بعض الأبتعاد عن قول مخالفيه . ورأى يرى واليوت سميث أن الثقافات البدائية في العالم المعمور تنتمي الى أصل واحد وهو أصل الثقافة بوادي النيل ، ومنه انحدرت الى القبائل القريبة ثم الى القبائل البعيدة ، فتخلفت معها وانتكست بانتكاسها أو تقدمت بتقدمها على حسب نصيبها من التقدم ورأى الأكثرين أن نطاق الثقافة الأولى أوسع من ذلك في أصوله ، وأنه يشمل الحوض الشرقي للبحر الأبيض المتوسط ووادي النهرين وأقاليم الشمال من الهند والصين .

والرأى الذي يأخذ بالمفهوم المنطقي ولا يتكلف الاستقصاء والمقارنة بين الآثار يحكم بضرورة تقدم الإنسان الناطق حيثما وجد في بقعة من بقاع الأرض ، ولو لم ترتبط هذه البقاع برابطة جغرافية أو عنصرية يدل عليها الآثار والمخلفات ، ولا مانع عند أصحاب هذا الرأي من استقلال ثقافة المكسيك وثقافة اليابان ، وإن جاز الاتصال بينهما قديما قبل عصور التاريخ . .

* * *

والآن ، وقد مضت هذه الأشواط الطوال على الإنسان الناطق ، وعلى ثقافته المتوالية ، يعتقد علماء الدراسات البشرية أن هذا « النوع » يقوم على مفترق الطرق بين وجهات الأمر جميعا وبين قبلة في الغد المجهول قد تستقيم به على نهج غير مسبوق ، وتشرع له دستورا من العلاقات بين أقوامه وآحاده لم يعرف لها مثال في حضاراته الغابرة أو حضاراته المعاصرة .

ان الأشواط الغابرة قد انقضت - كما تقدم - على مرحلتين شاسعتين ، استغرقتا مئات الألوف من السنين : مرحلة الصراع مع الطبيعة ، ومرحلة الصراع بين الإنسان والإنسان للغلبة على سيادة العالم المعمور .

ولا تزال المرحلتان ماضيتين في عملهما السياسي والاجتماعي ، وفي عملهما الفكري والأخلاقي ، فان تسخير الذرة انما هو امتداد لاستخدام النار بدأ قبل التاريخ ولم ينته الى غايته حتى أواسط القرن العشرين * وأنه

الصواريخ الموجهة بين القارات انما هي امتداد السلاح الحجري قبل ألاف القرون ، ويتساءل المستطلعون للغد - من علماء الدراسات البشرية وغيرهم - هل من جديد ؟؟؟

فان يكن شك في الجديد المجهول ، فالأحوال المكشوفة للنظر تنبئنا أن القديم غير القديم ، وأن التغيير الذي طرأ على القديم انما هو هذا التقارب الدائم بين أجزاء العالم وهذا التشابك المتغلغل الى الأعمال في مصالح الأمم والجماعات ، وهذه الوحدة العالمية التي لا تنفصل فيها جماعة من الناس بخطر يصيبها ولا يصيب معها القريب والبعيد من الجماعات ، شعوبا كانت أو طوائف وطبقات ..

* * *

بقى الصراع بين الأمم وتغير منه أنه كان بالامس صراعا بين أمتين لتغليب احدهما على العالم المعمور حول الأمتين ، فأصبح اليوم صراعا بين شطرين من أمم العالم كله لتغليب نحلة اجتماعية أو « ايدولوجية » على العالم كله بسلاح القوة أو سلاح الدعاية ، ومصير هذا الصراع هو الغد المجهول الذي يطالع الانسانية باحدى حالتين : وحدة عالمية تجرى فيها دساتير الحكم والتفكير والأخلاق على سنة « التضامن » والتسامح ولو بين المتخالفين في تفصيلات هذه الدساتير ، أو حرب جائحة تؤول بالثقافة والآداب النفسية والعقلية الى الشتات والانتكاس ، وتعود بالأمم الى أوائل شوط جديد يعيدها كرة أخرى الى جاهليتها المتروكة منذ دهور

وعلى العلم اليوم أن يرصد ذلك البعث ، أو تلك القيامة ، بما يفتح له من وسائل النظر الى الواقع المعلوم والغيب المجهول

الإنسان في علوم النفس والأخلاق

أوسع المذاهب الأخلاقية تحتويه فكرة الحيوان الاجتماعي التي عبر عنها أرسطو بقوله : « ان الانسان مدني بالطبع » وجعلته نموذجاً وحيداً في الكون حين وصفته بأنه « حيوان ناطق » ثم وصفته بأنه حيوان اجتماعي ، تلازم فيه صفة النطق صفة الاجتماع

فليس بين الأحياء على وجه الأرض حيوان يوصف بالنطق وبالفطرة الاجتماعية غير الانسان ..

واسم « الانسان » وحده باللغة العربية يغني عن مذهب ، لأنه اسم يعتبر هذا الكائن الوحيد أساساً للالفة الاجتماعية حين تنسب لغيره . وقد لعب الشعراء بما في الكلمة من الجناس اللفظي فقال أبو تمام :

لا تتسبن تلك العهود قائماً

سبميت انساناً لأنك تاسي

وقال غيره :

وما سمى الانسان الا لنسيه

ولا القلب الا انه يتقلب

ولكن المقابلة بين الكلمات قديماً وحديثاً تبين لنا عن أصل هذا المعنى .. فالمكان الأنيس هو الذي يسكنه الناس ، والحيوان الأنيس هو الذي يألف الانسان في مسكنه ، وغير ذلك من الأمكنة أو الخلائق فهو المكان الوحش وسكانه هم الوحوش

ويسرى هذا المعنى الى اللهجات البدوية الحديثة ، فيطلق أهل البادية في الصحراء الغربية اسم « العشرية » على الشاطئ المأهول ، ويطلقون اسم الحلاء على ما وراء ذلك من رمال الصحراء التي لا تزرع ولا تروى ، ولا يسكنها الانسان ولا الحيوان في عشرة طويلة

ان الحضارة الأوروبية - منذ عهد الفلسفة الاغريقية - لم تهتد الى

مذهب محيط « بالانسان الأخلاقي » أوسع من هذا المذهب ولا أقرب منه الى لباب المذاهب الأخرى التي ظهرت بعده في هذه الحضارة

أما الحضارة العربية فصفة الانسان في لغتها وتفكيرها ألصق به من أن تكون مذهبا تقابله مذاهب أخرى في معناه أو غير معناه . ان صفة الانسان في هذه الحضارة العربية هي اسمه الذي لا ينفك عنه ، وما من عجب أن « تنبت » هذه الصفة من البادية حيث يتضح الفاصل بين خصائص الأئس وخصائص الرحشة غاية الاتضاح

وتكاد كل حضارة كبيرة أن تمتاز بطابعها في تعريف الانسان الأخلاقي ، أو الانسان صاحب الضمير الذي يناط به الحساب ويوصف بالحميد أو بالذميم من الأعمال والعادات

فالانسان في الحضارة الانسانية هو ظاهر وباطن كالوجود الذي خلق فيه ، وظاهره تحكمه قوانين السلوك العملي ويقاس بالمقاييس الاجتماعية ويكل ما ترتبط به مصالح المجموع Pluralistie وتسمى هذه القوانين بأداب الميامزا Miamsa ويظن أنها وفدت الى الهند مع الشعوب الفاتحة التي جاءتها « بأدب العمل والحركة » فتميزت فلسفتها بهذا الطابع بين فلسفات الانزواء والهزب من الحياة

وباطن الانسان يستقبل باطن الوجود ، ويسمون فلسفته بالسانيسا Sannyasa أى فلسفة التجرد من المادة ، وطلب الخلاص من لعنة الولادة والموت بانكار الجسد وقمع الشهوات الدنيوية والعزوف عن صغائر الحاجات وكبائرها على السواء ، ويوشك أن يكون كل مذهب « فصامي » على هذا النحو مستمدا في النهاية من أصوله الهندية ، وإن كانت نهاية المذهب الى « اليوجا » التي تجعل الجسد والطبيعة كلها تبعا للرياضة الروحية . .

وحضارة الصين تميز الانسان بالمعرفة وتوافق الحضارة الأوروبية التي جعلته « حيوانا ناطقا » اجتماعيا كما توافق تعريفه العلمي الذي يعني أنه مخلوق مميز ومخلوق صاحب ذوق واحساس Homo Sapiens على حد اسمه المأخوذ من اللاتينية . ولكن المعرفة في مذاهب الصين وهي « الزن » Zen ليست علوما منفصلة المقدمات والنتائج مشروحة القضايا والبراهين

وانما هي حالة كحالة الرشيد الذي يبلغه الشيخ المحنك بالنسبة لغرارة الطفولة ، قوامها القدرة على مقابلة الحوادث والأشياء مقابلة التصرف الرشيد ، لأسباب قد تعرف عند الشرح والتفصيل وتعرف لها براهينها وأسانيدها بالمعاني والكلمات ، ولكنها حاضرة قبل ذلك حضورا ساكنا رصينا في الذهن بغير معاني أو كلمات ، وشعارها عند الحكماء « ان من يعرف لا يتكلم ومن يتكلم لا يعرف »

وهذا « الانسان » في مذاهب الحضارات الكبرى مقبول بتعريفاته وصفاته في جميع الديانات والعقائد الروحية ، ففي وسع العالم الديني أن يقول بصفة جامعة من هذه الصفات دون أن يعرض لمناقشتها ، أو يناقض اعتقاده الديني بتفسيرها على معنى من مختلف معانيها . وفي وسع العالم المادي أن يفسر صفات الانسان على حسب هذه التعريفات دون أن يلتبس لها مرجعا وراء المادة والطبيعة محالا الى عالم الغيب أو ملموسا مدركا في عالم الشهادة . .

ففي وسع كل قائل بمذهب من هذه المذاهب أن يعلل أخلاق الانسان جميعا بتنازع البقاء مع أبناء نوعه أو مع الطبيعة وعناصرها

وفي وسعه أن يعلل الأخلاق الانسانية جميعا بفريزة حفظ النوع على سمعتها ، أو بالفريزة الجنسية في نطاقها المحدود بعلاقات الجنسين

وفي وسعه أن يعلل تلك الأخلاق بطلب القوة والسيادة ، أو بطلب الأمن والدعة ، أو باستحياء الطبيعة وتصوير الانسان كل ما يحسه في خلده يصور الأحلام ومخلوقات الخيال

وانما يبرز خلاف الرأي بين الدينين والماديين حين يبحثون في الملكات الفكرية التي تناط بها الأخلاق في كل تعريف من هذه التعريفات : هل تناط بحياة روحية من مصدر وراء الطبيعة والمادة ، أو هي منوطة فيه بوظائف الحياة الجسدية التي لا فرق بينه وبين الحيوان فيها غير فرق الدرجة و « الكيفية » ؟

مثال رأي الماديين يقول به ريدلي Ridley صاحب كتاب الانسان في حكم العلم Man, The Verdict of Science ويستند فيه الى آراء جماعة

من علماء الكيمياء الحية وعلماء البيولوجى وعلماء الاجتماع ، ويوجزه فى بضعة
سطور. فيقول : « ان الانسان - وإن كان قد أبان عن قوى عقلية نفسية
تعلو كثيرا على كل قوة يبين عنها كائن حي سواه - لا يزال نوعا حيوانيا
له قرابته بالخلائق السفلى . ولم ير الاغريق الأقدمون داعيا الى فصل
الانسان عن جمهرة الكائنات الحية التى كانوا يشاهدونها حولهم ، وقد أدخله
أرسطو فى نطاق برنامج الحيوى مع سائر الحيوان والنبات ، وجاء لينوس
(١٧٠٧ - ١٧٧٨) بعد قرون عدة فنشر كتابه عن نظام الطبيعة سنة
(١٧٣٥) وعد فيه نوع الانسان بين أنواع الحيوان ، وقد عده فى طبعة
الكتاب الأولى بين ذوات الأربع من القردة والدب الرسيف . وبوفون
الفرنسى معاصر لينوس ، وضع الانسان فى المملكة الحيوانية واجترأ على أن
يحتل نسبته مع انقرض الى أصل واحد ، وكان هذا أكثر مما يطاق فى عرف
السلطة الدينية الفرنسية فخبروه بين النبذ وبين تعديل رأيه ، وهو تحير
لم يتعرض له لينوس فى البلاد السويدية . وقد وضع الانسان وضعه المحكم
فى تعريف « الزولوجيين » فجعلوه بين أعلى الأحياء وهى ذوات الفقاريات ،
وجعلوه بين هذه فى ذروتها وهى الحيوانات اللبون ، وأعلاهها بعد ذلك طبقة
الأوائل التى تشمل القردة والنسائيس . وهم يقسمون الأوائل أقساما
أعلاهها القسم البشرى Homo وهو القسم الذى كان ينتمى اليه بعض
الأحياء ممن بقيت آثارهم فى حفائر الطبقات الأرضية ، ولكن الانسان
الحديث وحده هو الذى يصدق عليه اسم البشر الناطق أو الحيوان العارف

* * *

فالماديون من البيولوجيين والزولوجيين يرون أن الارتفاع بالانسان
الى ذروته المتفردة فى تقسيمات الحيوان كاف لفهم الفارق الكبير بينه وبين
الأوائل Primates وبين هذه الأوائل وما دونها من أقسام الفقاريات وما
دون الفقاريات ، ولا حاجة - مع هذا الفارق فى الدرجة - الى فارق آخر من
عالم وراء المادة والطبيعة ، وهو فارق الروح

وقد اشتهر فى أواسط القرن العشرين علماء بيولوجيون من رجال الدين
المسيحيين يسلمون كل درجة من درجات هذا التقسيم ولكنهم يقولون
ان الفارق لا يفهم الا على وجه واحد ، وهو أن الفوارق جميعا بين درجات

الأحياء انما ينتهى الى التدرج بينها في الاستعداد للعقل والوجدان ، وإن أرفع درجة يرتقى اليها الحيوان الأعجم لا تمنع أن تكون اعدادا للبنية الحيوانية أن تتلقى ما فوق ذلك من ملكات العقل والوجدان

وأشهر القائلين بهذا الرأي الأب بيير تيلهارد *Pierre Teilhard de chardin* البيولوجى المتخصص لدراسة علم الحياة والحفريات وأحد الذين أسهموا فى كشف انسان بكين والقوا الدروس العلمية فى المعاهد الكبرى ، ومنها معهد اليسوعيين العالمى بالقاهرة ، وكتابه « ظاهرة الانسان » *The Phenomenon of Man* أحد الكتب العلمية الفلسفية التى عدت فى أواسط القرن العشرين بعض معالم الطريق فى اتجاه الفكر الحديث ، وقد سلم فيه تقسيمات علم الحياة وعلم الأحياء حرفا حرفا ثم عقب عليها سائلا : « اذا كانت قصة الحياة لا تعدو أن تكون حركة الى الوعى وراء نقاب من تركيب الأجهزة العضوية ، فالنتيجة اللازمة حتما عند بلوغ التركيب غايته المقاربة للانسان أن يتمثل هذا الاقتراب فى ابتداء ظاهرة الأهبة السيكلوجية وبزوغ ظاهرة الذكاء . ومن ثم يلقى الضوء على « المفارقة الإدمية » نفسها ، لأننا قد نشعر بالحيرة اذا لاحظنا قلة الفارق التشريحي بين الكائن البشرى وبين من دونه من البشرى على الرغم من سموه العقلي فى بعض مظاهره ، فانه فارق يقل حتى تكاد نتخطاه على الأقل من جانب أصوله ، ولكن أليس هذا بعينه ما ينبغي أن ينتظر ؟ »

ويجلو هذا الرأي بالأمثلة المحسوسة عالم آخر متدين ، هو الأستاذ روسل هاريسون الذى يقول فى كتابه عن مصير الانسان : « اننا لا نعرف الموسيقى اذا عرفنا كل دقيقة وجليلة من الأخشاب والمعادن والأوتار التى تدخل فى تركيب العود والقيثار والبيان . وبعض علماء الحياة يراقبون تغذية الحيوان ، ويلاحظون أن العواطف تتأثر ببعض الأغذية فتتقص أو تزيد . . . لاحظوا أن الفأرة التى يقل المنجنيز فى غذائها تهمل صغارها ولا تعطف عليهم ، وانه لحسن منهم أن يلاحظوا هذا ويصلوا منه الى زيادة حصة الحيوان من ذلك الغذاء ، ولكنهم اذا جاوزوا ذلك فقالوا ان عاطفة الأمومة هى مقدار معلوم من المنجنيز فهم مخطئون ، وخطؤهم فى هذا الرأي كخطأ القائل ان نغمات الموسيقى أخشاب وأوتار . . »

ويتبدل منحنى الاستدلال المنطقي والعلمي ، إذن ، بهذا التفسير لمذهب
النشوء القائل بارتقاء الحيوان والتشابه بين كل درجة من درجاته ومادونها
وما فوقها في الاستعداد لأهبة العقل والوجدان ، فلا بد أن يحدث ذلك
للوصول الى الجهاز الحيواني الصالح للنهوض بمطالب الروح والوجدان ،
وينقلب الأمر على الماديين فيصبح المادى وهو المسئول أن يقول للمعترضين
عليه من رجال الدين : لماذا يكون معيار التقدم زيادة الوعي على درجات
تناسب الترقى في تركيب البنية العضوية ؟ وكيف يتأتى هذا الانتظام في
الأداة وفي النتيجة ان لم يكن هنالك طريق مرسوم لغاية مقدورة ؟ .

ومن العلماء غير الدينين من أقنعتهم هذه الحجة بعض الاقناع ووافقت
مذهبه في اقتباس « الديانة » من العلم أو « الديانة بلا وحى » كما يسمونها
في اصطلاحهم المتفق عليه Religion without Revelation فقال علم أعلامهم
وهو السير جوليان هكسلى في تقديمه لكتاب ظاهرة الانسان : « اننا معشر
بنى آدم نحتوى في أنفسنا كل ما فى الأرض من الامكانات الهائلة ، وفى
مقدورنا أن نزيد ما يتحقق منها على شريطة الازدياد من العلم والمحبة » .

وتكاد هذه الأسطر أن تكون نسخة ، معنوية ، من كلمات الختام التي
انتهى اليها السير جوليان هكسلى فى كتابه « قناني جديدة لحجرة جديدة »
اذ يقول :

« ان صورة الانسانية المتطورة أعانتنى على أن أرى - من وجهة المبدأ
على الأقل - ان الدين والعلم قد يتفقان ، وقد هدتنى الى مخارج من العطف
والفكر يحق لنا أن نطلق عليها اسم الدين ، ولكنها كانت لولا ذلك خليفة
أن تكبت وتترك نسيا منسيا . . . فهى بهذه المثابة تعلمنا كيف يسهم العلم
فى تقدم الدين ، وقد قرر جدى فى مقالة عن اللا أدريه كلاما فى هذا الصدد
كأنه غنى بذاته عن البرهان فقال : « ان كل انسان ينبغي أن يعطى سببا
للايمان الذى يؤمن به . . وان عقيدتى لهى الايمان بالامكانات الانسانية
وأرجو أن أكون قد وفقت الى شرح أسبابها »

* * *

على أننا تجترى بأحدث الأقوال التي انتهى اليها علاه الماديين بيانا

لمزية العقل فى حيوان الناطق ، فإلا نحسب أنهم قد استطاعوا أن يدعوا له مزية أقل من مزية الروح فى ارتباطها بالحياة أو بالمؤثرات الحيوية على وظائف البنية الإنسانية على الخصوص ، وربما كان تعويلهم على دلالة الجهاز العصبى فى الحيوان عامة وفى الإنسان خاصة أشد من تعويل العلماء المتدينين على دلالة الارتقاء الى الملكات الروحية بمقدار الارتقاء فى التراكيب الجسدية

فالأستاذ بافلوف المشهور بتجاربه الجسدية النفسية يقول : « كلما أحكم كيان الجهاز العصبى فى بنية الحيوان كان أقرب الى التركيز ، وكان أقدر على المزيد من التأثير بوظائفه العليا على التوزيع والتنظيم فى أعمال البنية كلها » .

وقد أثبت زملاء بافلوف وتلاميذه أن بقاء الحياة بعد توقف نبض القلب مرهون بسلامة المخ الذى يحتفظ بسلامته بعد توقف النبض بنحو ست دقائق ، وإن الوعي الإنسانى له أثره حتى فى تأثير السموم القاتلة .

جاء فى كتاب مسالك العلم الذى طبع فى موسكو سنة ١٩٥٦ :

من العقاقير السامة القوية التسميم مادة البوتاسيوم سيانيد . وهى سريعة الفعل تقتل على الأثر بمقاديرها الكبيرة ، وتسمم جميع الخلايا . لأن الخلايا تحت تأثيرها لا تتشرب الاكسجين ولا تتنفس ، وإذا حقنت به عروق قطرة ماتت على الأثر كأنها أصيبت بصاعقة . وقد حقنت به اثنتا عشرة قطرة فماتت ست منها خلال بضع ثوان ، ولكن الست الباقية لم تتأثر كأنما حقنت بماء ، وهى الست التى خدرت بالأثر المعقم أثناء الحقن (١) .

الا أن سلطان الوعي على الإنسان قد بلغ درجته العليا ، ويقول بافلوف فيما رواه عنه الكتاب نفسه : « عندما بلغ تطور العالم الحيوانى منزلة الإنسان نشأت إضافة هامة جدا فى جهاز النظم العصبية العليا . وفى الحيوان تتمثل وقائع العالم على الأعم الأغلب بما تحدثه من المنبهات التى تصل الى المخ فتبعث التنبيه الى حواس النظر والسمع وسائر الحواس

الحيوانية ، وهذه أيضا هي المنبهات التي تصل إلينا عن طريق المؤثرات والأحاسيس والحواس من العالم الطبيعي أو العالم الاجتماعي الذي يحيط بنا ، مما عدا المؤثرات التي ينفرد بها الإنسان وتؤدي له وظيفة التنبيه لذلك التنبيه »

ولا يدعى « للحيوان الناطق » ولا للحيوان ذى الروح مزية أكبر من هذه المزية ، فهي تكاد أن تقرر للروح سلطانا على الجسد كسلطان « اليوجا » المعروف عند نساك الهند ، وتكاد أن تجعل الأخلاق جميعا مسائل عقلية تملك التأثير الأكبر - ان لم نقل التأثير المطلق - فى كيان الإنسان وفيما هو أهل له من أهبة العقل والوجدان

مستقبل الإنسان في علوم الأحياء

ان العلم الطبيعي حذر في تقرير مذاهبه وأحكامه ، وأكثر ما يستبيحه لنفسه إذا وصل الى شيء لم يثبت لديه كل الثبوت ، ولم ير من أمانة العلم كتمانته وإخفائه ، أن يعلنه على أنه ظن مرجح وأن موضع الشك فيه قابل للدفع والتوضيح بدليل منتظر يذكر أسباب انتظاره . وكذلك فعل دارون عند إعلانته لنظريته في تحول الأنواع

وإذا وازنا بين حذر العلم في الحكم على الماضي وحذره في الحكم على المستقبل المحدود ، فهو في الحكم على المستقبل أحذر وأقرب الى التردد بل الى التوقف عن مجرد الظن الا مشفوعا بالاعتذار . ويرى هذا الاختلاف بين حذره من أحكام الماضي وحذره من أحكام المستقبل فيما قرره عن فعل التطور أمس وفعل التطور غدا . فان علماء النشوء استباحوا لأنفسهم أن يرجحوا وقوع تحول الأنواع وتقدم الانسان جسدا وعقلا منذ ألوف السنين ، ولكننا لا نعلم أن واحدا منهم أباح لنفسه أن يتنبأ بتطور واحد سيحصل غدا لا محالة ، أو بتحول واحد مرجح لا يقابله ترجيح مثله الى النقيض

وعذرهم من هذا التهييب مفهوم ، وهو أدل شيء على أن دلائل التطور الماضي لم تزد عند القائلين بها على أن تكون بعض الظنون الراجعة ، ولم تبلغ عند عالم جدير بصفة العلم أن تكون علم يقين .

عذرهم ان العالم يرسم الطريق كلما تكلم على الماضي ليس الا ، ولكنه ينشئ الطريق ويمشي فيه كلما أنشأ جزءا منه حين يسير الى المستقبل ، ولا يتساوى من يفتح طريقا ومن لا يزيد عمله على رسم طريق

ان كان بين علماء العصر من يحق له أن يعلن رأيا جازما عن مستقبل التكوين الانساني كما يتمثله علم الحياة فذلك هو « البيولوجي » الكبير الاستاذ « مداوار » Madawar صاحب جائزة نوبل للعلم الطبيعي « سنة ١٩٦٠ » وصاحب البحوث العالية في تهيئة جسم الانسان لقبول الأجسام الغريبة التي تنفر منها خلاياه على الرغم من تقسيم الأدميين الى فصائل وعائلات في تكوين الدم وأنسجة الخلايا ، فانه قد تبين له من تجارب

يضيق بها الحصر أن الفرد الانساني وحدة لا تتكرر في مكونات بدنه ، وان كل حكم على بنيته من طريق التقسيم الى فصائل وعائلات فهو تقسيم قابل للخطأ عند اجراء التجارب الطبية لنقل الأنسجة والاعضاء من بنية الى بنية ٠٠

وقد سئل هذا العالم الكبير أن يلقي محاضرات ريث Reith عن (سنة ١٩٥٩) فقال انه لم يكن ليبلغ به الادعاء أن يلقي هذه المحاضرات بعنوان مستقبل الانسان لولا انه عنوان مقترح عليه ، ولكنه على هذا لم ينفرد بالرأى فى مسألة من مسائل البحث المقترح ولم يعلن رأيا واحدا قبل أن يراجع فى موضوعه زملاء النقات فى مسائل ذلك الموضوع على التخصيص ، وقد ذكرهم بأسمائهم فى تهيئته للمحاضرات ٠ وبعد أن ذكر فكرة « البيولوجيين » الذين يحسبون أن تعدد النماذج الفردية قد يحول دون التوليد لاجراخ النسل على نمط مقدور ، مضى يقول : « ان الأمر يدعو الى التساؤل : هل يتأتى للانسان أن يبدى متطورا غدا كما تطور بالأمس ، أو أن هناك أسبابا تدعو الى الظن بأن هذا التطور قد بلغ أقصى مداه ؟ ٠٠

وطفق الأستاذ يقلب وجوه النظر ويعادل بينها حتى بلغ نهاية محاضراته وهو لم يجزم قط بمصير محدود ، سوى أنه رجح بعض الفروض ولم ينس أن يذكر أنها فروض تحيط بها الشكوك والاحتمالات ٠٠

قال - مثلا - ان الاحصاءات فى بريطانيا العظمى دلت على تكاثر نسبة المواليد الذكور بعد الحروب ، وان بعضهم فسر ذلك بأن الطبيعة تعمل لتعويض النقص على عاداتها فى كثير من المشاهدات ، فهو تفسير ليس بالغريب ، ولكنه قد يبطل اليقين به. ان هذه الزيادة أيضا قد شوهدت فى أمم لم تفقد أبنائها فى الحرب ولم تكن من الأمم المقاتلة

وقابل الأستاذ بين طرائق الاحصاء ، ومنها طريقة المقارنة بين سنة وسنة ، وهى غير وافية بالمقارنة الدقيقة ، وبين طريقة اختيار طائفة من الرجال والنساء وتسجيل ما يحدث لهم على مدى الفترات الطوال ، كل عشرين أو ثلاثين سنة ، وقال انها طريقة لم تكن ميسرة الوسائل قبل السنين الأخيرة ٠٠ ولكنها تيسرت الآن لانتظام الاحصاء فى شتى مظاهر الحياة ومنها تسجيل نسبة الجنسين وتسجيل معدل انعقد الزوجية وسن الذكر وسن الأنثى عند الزواج ، وتسجيل هذه السن عند ولادة كل مولود أو

مولودة ، وهذه الطريقة تفيد ما لا تفيده الطريقة الأولى عند تعليل تعويض المواليد للوفيات ، لأنها تبين الوقت الذى تحدث فيه أوائل المواليد وتبين للقائمين بالاحصاء هل يزيد العدد لزيادة الحصوبة العائلية أو لزيادة الوقت المحدود للاحصاء ؟

ولم يتقبل العالم البيولوجى بالارتياح عبارة المتشائمين الذين يفهمون من كلمة الانحدار أو هبوط الاستعداد الحيوى أن النوع الانسمانى سينحدر حتى ينقرض ، وقال ان العبارة « متحف من النقائص » فاننا اذا استطعنا بالعناية أن نحفظ الى اليوم بأناس كانوا - لولا ذلك - قد أصبحوا أمواتا قبل عشر سنوات ، فنحن كيفما كانت الحال نعيش اليوم ولا نعيش قبل عشر سنوات ٠٠ كذلك يمكن أن تعصف نازلة من النوازل بالعقاير التى تداوى بعض الأمراض ، فلا يكون مآل ذلك الا أن الذين سيموتون غدا قد يموتون اليوم بدلا من ذاك

ومن دواعى تصعيب النبوءة عن المستقبل أن التغيرات المحتملة بين أفراد البشر أكثر جدا من التغيرات التى تقع فعلا ، وان اختلاف اثنين من البشر فى الواقع قد يعنى قبل ذلك افتراض عشرات من الأفراد مختلفين كذلك الاختلاف أو أبعد وأخفى ٠٠ ومن أقدم الأسباب المعلومة عند الجينيين Geneticists لاحتمالات التغيرات المتعددة ما يسمى بقابلية المقايضة بين الصبغيات ٠٠ وهى عملية يمكن أن تتم اذا كانت كلتا الصبغيتين ماثلة للأخرى تماثلا يميل بها الى الامتزاج ، ثم إعادة الامتزاج على أشكال طارئة مبتدعة ٠ وربما جاء اليوم الذى يستطيع فيه الكيميون والطبيعيون الحيويون أن يحدثوا هذا الامتزاج ، وخليق بهذا أن يذكرنا أهمية التحول الفجائى Mutation وما يترتب على امكان احداثه من تغيير النسل بالانتخاب الصناعى ٠ والمشاهد من أطوار جراثيم « البكتريا » أن لها خاصة عجيبة وهى خاصة الاحتياط لمعالجة الأضرار التى قد تطرأ فى المستقبل ، وربما وجدت فى الناس خاصة كهذه يدل عليها نجاة فريق منهم من الأوبئة والعلل المنتشرة ، وكون ضرب من المناعة يزود خلاياهم الناسلة بمثل ذلك الاحتياط لمقاومة آفات المستقبل ٠ وقد يدهش السامع - بعد كل ما عرف عن الوراثة - أن يعلم انه لم توجد بعد فكرة وإفية عن الأمور التى تفعل والأمور التى تجتنب لتحسين نتاج الحيوان بالانتخاب الصناعى ٠٠

ويؤخذ من استطراد العالم البيولوجي في أمثال هذه العوامل الجينية أن العلم بها يفتح آفاقا من فروض التغيرات المحتملة يقصر عنها وسع النبوءة والتوقع ، وإن الاستعانة بالمعارف المستحدثة تمكن الإنسان من معرفة وسائل التحسين في الذرية ووسائل اتقاء الانحطاط فيها ، ولكن هذه الوسائل لم تضبط - بعد - على يقين من نتائجها

ولكن ترقية النسل لا تعتمد كلها على ضبط هذه الوسائل الجينية ، لأن هناك وسائل التفكير أو وسائل الخصائص التي قد تنتقل بالوراثة من الدماغ . .

قال الأستاذ مداوار في محاضراته الأخيرة : « انني في هذه المحاضرة الأخيرة سأبحث في الكائنات البشرية عن وسيلة جديدة - غير الوسيلة الجينية - للوراثة والتطور مبنية على خصائص وحركات مصدرها الدماغ

» وإن وجود هذه الوسيلة أمر تعرفونه جيد المعرفة . . فلم يكن البيولوجيون هم أول من أفضى إلى أناس شرع إلى التصديق بأن الكائنات البشرية ذات أدمغة ، وإن الأدمغة تحدث فروقا شتى ، وإن الإنسان قادر على أن يؤثر في الأعقاب الآتية بوسيلة غير الوسيلة الجينية ، وإن كثيرا مما قرأت في أقوال البيولوجيين ليلوح عليه أنه لا يفيدنا بشيء يزيد على ما ذكرت لكم وإنني لأحس أن البيولوجي مطالب بأن يسهم بنصيب يساعد على فهم الأصول البعيدة التي تتفرع عليها الأخلاق وضروب السلوك ، وهو ما أحاوله الآن . . ولا بد أن تأتي هذه المحاولة مستندة إلى التفكير « الصلب » لا التفكير « الناعم » . . وأعني بذلك تفكير يعرف له حيز واقع وتدرك له تفصيلات بيئية ، مقابلا للتفكير الذي يجد متنفسه في الكلمات الموثقة والعبارات المفخمة الشعرية

« وأراني أقارب الوضع البين إذا عبرت عن ذلك بمثال محسوس ، وأسألكم أن تعيدوا إلى الذكر ذلك الفارق الهام بين الصندوق العازف والجهاز الحاكى « الجرامفون »

« فالصندوق العازف جهاز يحتوي قالباً أو أكثر من قالب من قوالب الجرامفون يعيد للسمع كل ما أودعه عند لمس زر معلوم ، واسمى لمس ذلك

الزر بالباعث أو المحرض ... وهو باعث مقصور على القالب الذى يؤدى الى سماعه ، فهو مؤثر واحد يأتى بأثر واحد بينهما هذه العلاقة المتبادلة . واننى أبعث الصندوق بلمس الزر - أى زر - الى احداث نغمة موسيقية ، ولكننى اذا اخترت زرا معينا فالباعث هنا يدعو الى احداث نغمة معينة دون سائر النغمات الموسيقية ، والتوجيهات الموسيقية فى هذه الحالة جزء من الصندوق وليست جزءا من البيئة المحيطة به ، وكل ذلك راجع الى تركيب الصندوق فليس ضغطي على الزر توجيهيا للصندوق فى أداء نغماته الموسيقية

• ... والآن تقابلون بين هذا وبين عمل الجرامفون أو أية أداة أخرى تؤدى لنا النغمات الموسيقية .

» ان لدى قوالب موسيقية أقوم بتحريك بعض المفاتيح وأضع القالب على الجرامفون والقالب منقول اليه من البيئة المحيطة .. فذلك باعث كباعث الصندوق العازف الى أداء الأنغام الموسيقية ، ولكنه يضيف الى الباعث هناك شيئا أكثر من ذلك .. وهو الخطوط المرسومة التى تمر بها الابرة فتبعث منها الأنغام المؤداة ، وليس لدى الجرامفون مصدر للتوجيهات الموسيقية وانما هو القالب الذى جاء الى الجرامفون من البيئة الخارجية ، فكانت علاقته به - اذن - علاقة تعليمية ، لأننى - بمعنى من المعانى - قد علمته كيف يؤدى النغم المسموع

» .. ونحن فى الحالتين صنعنا الصندوق وصنعنا الجرامفون وأعدنا كلا منهما للعمل الذى يؤديه ، ولكن هذه الحقيقة لا تقدم ولا تؤخر فى مغزى الاختلاف بين عمل هذه الأداة وعمل تلك .. فلندكر هذا الاختلاف فيما يلي من المقارنات ..

» ... منذ عشر سنوات اتجه البيولوجيون الى العلم بأن الأجهزة الحية العليا أشبه بالصندوق العازف منها بالجرامفون ، وان كل ما كنا نحسبه من قبل حركات تعليمية هو فى الواقع حركات تنبيهية ليس الا .. أى ان تحريك الكائن الحى يحدث شيئا هو نتيجة تركيبه وليس - كما كان مظلونا - نتيجة شئ من الخارج .. فليست الآثار المستقرة فى الجهاز الحى خطوطا مرسومة على قالب يديره ذلك الجهاز ، ولكنها آثار جينية مودعة فى الصبغيات وحوامض الخلايا

« واسمحوا لي أن أبين بعض الأمثلة لهذه الحقيقة :

« فأقدم الأمثلة وأشيعها مثل التغيير الذي يعترى جمهورا من الناس عرض له التطور ، فكيف نصنف البواعث التي تفعل فعل التطور في الأجهزة الحية ؟ ٠٠ ان النظرية اللاماركية التي تقول بوراثة الصفات المكتسبة هي على أعمها تنظر الى البواعث التعليمية ، تعنى أن البيئة على نحو من الأنحاء قادرة على اعطاء تأثيرات تعليمية للأجهزة الحية ، وان هذه التأثيرات اذا سرت في البيئة سريانا حسنا أمكن أن تنتقل بالوراثة الى أعقابها ٠٠ فالحداد الذي طالما ضرب به المثل لتعزيز هذه الملاحظة ، يستفيد قوة في ذراعيه من طرق الحديد فتؤثر هذه القوة في الخلايا التي تنشئ بذوره المنوية وتنتقل من ثم الى أبنائه ، فيولد هؤلاء الأبناء وفيهم استعداد لتربية الأذرة القوية ٠٠ ولست أفيض في مناقشة التجارب التي تكررت لامتحان العوامل اللاماركية ٠٠ وحسبى أن أجملها فأقول انها جميعا أسفرت عن نتائج غير لاماركية ، ودلت على مؤثرات تنبئية وليست تعليمية

« ومثل آخر من الأمثلة الشائعة هو مثل البكتريا اذا أعطيت طعاما غير طعامها المألوف أو تعرضت لعقار مضر بقوامها ، فانها في هذه الحالة قد توفق بين قوامها وبين الطعام الجديد أو تزيل ضرر العقار وتلغى مفعوله ، وقد سميت هذه العملية زمنا باسم تدريب البكتريا على اعتبار أنها عملية قادت البكتريا الى تعلم طريقة جديدة لتوليد الخمائر من طعامها ، ولكنها تسمية لم تلبث طويلا حتى تبين خطؤها وتبين ان هذه العملية وسيلة تنبئية وليست بالوسيلة التعليمية . فليس في وسع البكتريا أن تنشئ خميرة غير التي هي مفطورة على انشائها ، وكل ما حدث عند تغيير الطعام انه نبه الاستعداد الذي لم يكن له منبه قبل ذلك ، وهو استعداد كامن في التركيب وليس بالتعليم المستفاد من فعل الطعام أو العقار ٠٠

« ويصدق هذا على تطور الحيوان ٠٠ فقد كثر الجدل زمنا بين أنصار القول بالتنبيه وأنصار القول بالتعليم ، اذ كان الأولون يرون أن كل تطور فائما هو نشر لما كان مطويا هناك ، وكان المتطرفون منهم - وطالما تعرضوا للسخرية - يرون أن بذرة النسل انما هي انسان صغير . أما الآخرون فعندهم أن العوارض التي تعمل في تكوين الجنين انما هي بواعث تعرض

له مما حوله • ولعل الحقيقة وسط بين هذين الطرفين ، فالعوامل الجينية تتم لأنها كامنة هناك ولكن استيقاظها رهين بالعوامل الخارجية عنها •

« والى تخو ستنتين كنا نشعر أن ضربا من النمو يتم فى أجهزة الحيوانات العليا بفعل البيئة على اعتبارها موجهة أو معلما ، على النحو الذى نشاهده عند تلقىح الأنسجة بمادة خارجية ، تؤدى الى انشاء البنية لمادة بروتينية خاصة •• أغلب ما يكون عملها أن تحول دون تلك المادة والاضرار بالبنية ، مما يكون له أثره فى الوقاية من عدوى الأمراض •• ومع البوادر التى توحى بأن هذه العملية تعليمية ، أخذ كثيرون من البيولوجيين يشكون فى ذلك ويعتقدون أنها لا تعدو أن تكون تنبيهية فى جوهرها •• ونعود الى الصندوق العازف مرة أخرى ••

« وبعد •• فأبى ظفر يتاح لنا لو أمكن البنية أن تتلقى التعليم من البيئة وأن نجعل هذه البيئة قادرة على أن تعلمها ولم يكن قصارى قدرتها أن تنبه ما فيها ؟ •• ربما قال لنا زائر قدم الى هذا الكون من كون غريب عنه قبل بضعة ملايين من السنين ، نعم •• انه لظفر عظيم ، واننى لألمح سره وأفهم ان هذا السر يحل مسألة التوفيق والموافقة بين الحى والبيئة ، ويجعل الكائنات الحية مهيأة للنمو والتطور على صورة أوفى وأسرع من صورة التطور بفعل الانتخاب الطبيعى ، لولا أنها صعبة جدا ، وانها ليست مما يستطاع ••

الا أنكم تعلمون أنها استطيعت ، وان هنالك جهازا قابلا لأن يتلقى التعليمات من الخارج وهو جهاز الدماغ

« واننا لنعلم القليل من أسرار هذه المسألة ، وهو ما نفهم منه مقدار تعقدها واشتباك وظائفها •• فان تطور الدماغ قد كان آية رائعة فى هذا الوجود ، وهو - ولا ريب - أعظم الآيات بعد آية الحياة نفسها ••

« على أننى أظن أن الدماغ انما نشأ فى مبدأ أمره كذريعة للتنبيه ، وان السلوك الغريزى انما هو ذلك السلوك الذى تستجيب به البنية لتنبيه المؤثرات الخارجية ، فاذا لقحت دجاجة بهرمونات الذكر أخذت هذه الدجاجة فى سلوك كسلوك الديك لم يكن أصله بعيدا من تكوينها

« ولكن وظائف الدماغ العليا تستجيب للمؤثرات التعليمية فنحن نتعلم

« ٠٠ ولا يقف الأمر عند هذا الحد بل يسرى من جيل الى جيل كما نسرى الخطابات المتسلسلة التي تبدأ بكتابة خطاب الى أحد الناس ، وتسأله أن يبعث به الى غيره ويوصى ذلك الغير بأن يبعث به كذلك الى آخر وآخر الى غاية الشموط الميسور ، فيتعلم الأب ويعلم ابنه كيف يعلم حفيده وابن حفيده وهكذا ، وهكذا ، على مدى الأجيال ٠٠

ومن المهم جدا أن نميز بين أربعة أدوار في تطور الدماغ : أولها الجهاز العصبي وقد نشأ لتنبية البنية ٠٠ ثم دور الدماغ وفيه تتلقى الكائنات الحية التعليم من الخارج ، ثم دور الوراثة من طريق غير الطريق الجينية يأتي من قدرة الدماغ الدقيق التركيب على شيء أكثر من تلقى التعليم وهو نسليله الى آخرين . وانه لعامل خاص بالنوع الانساني لعله قام بعمله الهام منذ خمسمائة ألف سنة ٠٠ أما الدور الرابع فهو شديد التشبه بالدور المتقدم ، ولكنه لا يمانله تمام الماثلة ، ونعنى به دور التطور الذي يشمل الجماعة كلها وقد تضاعف عمله منذ مائتي سنة ٠٠

ونسأل بعد هذا ما الذي نستفيد منه مما تقدم ؟ فنقول ان الاغترار بالمشابهات خطر لأنه يغض من أثر الاختلافات ٠٠ فالمشابهة بين تطور الفرد وتطور الجماعة لا يجعلهما عملية واحدة في مجرى الحوادث ولا فى عواقبها ٠٠ فصناعة الحداد تورث ولا شك ، ولكن وراثتها من طريق الناسلات والصبغيات - أو ما نسميه بالطريق الجينية - غير مستطاعة ٠٠ وفائدة التمييز بين التطور الفردى وتطور الجماعة أن نبعد عن أذهاننا فكرة القوانين الطبيعية التى تعمل فى الحالتين على سنة التغيرات الجينية ، أو الفكرة التى تقول لنا ان الجماعة لا بد أن تولد وأن تموت كما يتعاقب الموت والولادة على الكائنات الحية ، أو الفكرة التى توحى الينا ترك الجهد فى تحسين الجماعة اعتمادا على أن الطبيعة أخير وأدري

* * *

« ونحن اذن نستطيع أن نهذب الطبيعة ، ولكن استطاعنا هذه مرهونة بمقدار ما نملك من وسائل الغوص على أسرارها وخفاياها ومشاربنا على زيادة محصولنا من العلم بما يجرى فيها ٠٠ ولست أقول ان الانسان مدفوع بغريزة تحفزه الى الكشف والاستطلاع وانه مسخر أبدا فى طلب الحقيقة ، فان الحيوان أيضا مزود بما يمكن أن يسمى على الاجمال حبا للتطلع أو

التجسس ، ولكن هذه الغريزة وان بلغت غايتها من الاحكام والقوة لا تقيدنا ولا ينبغي أن نكون مدفوعين دفعا الى الاستطلاع ، وان أولئك الذين يبسطون لنا قوانينهم عن مقاصد الطبيعة يقاربون حدود الخطر والوبال .. وما علينا الا أن نذكر عاقبة الدعوى التي زعم أصحابها أن الانسان مزود أبدا بنزعة النضال والقتال .. ونحن نقابل بيننا وبين أنواع الحيوان الأخرى ، فنرى على التحقيق أن الفارق بيننا وبينها في هذه الحصلة هو أن الأجراس التي تدق لنا دقات التنبيه انما هي كأجراس الماشية بجبال الألب معلقة بأعناقها فلا لوم على أحد سوانا اذا لم نسمع منها ما يرضينا »

هذه خلاصة مقتبسة من كلام العالم البيولوجي اقتباسا تحريرا فيه تصوير معناه ولم نلتزم حروف نصوصه ، ومجمل هذا المعنى أن مستقبل الانسان الطبيعي مستكن في كيانه وانه يملك وسائل التهذيب الاجتماعي ولكنه لا يقدر على احداث أثر لم تكن مولداته مطوية في استعداداته ، وان الأجراس التي تدق له دقات الخطر على حياته النوعية أو الفردية هي نفسها جزء من تلك الحياة ، وكذلك العلاج الذي يحتال به على الخطر بعد الانتباه اليه انما هو من عقار أرضه ووصفات طبه .

دواؤك منك وما تشعر دواؤك منك وما تفكر

وقبل الاستاذ مداوار بخمس عشرة سنة ، عند نهاية الحرب العظمى تقدم للاجابة على هذا السؤال عن مستقبل الانسان عالم بيولوجي من المؤمنين بالنشوء والتطور ، يضارع مداوار في منزلته العلمية وشهرته العالمية فكتب عن القدر الانساني Human Destiny سلسلة من البحوث الحديثة على منهج غير منهج زميله المتأخر ، لأنه يفترض الغاية المرسومة للتطور ، ويرد مقاصده جميعا الى عناية الالهية تتلخص حكمتها الهادية في أنها « تريد » ولكنها تعلم الحلائق أن تريد لنفسها وأن تترقى بالارادة على حسب جهودها ، مع الهداية التي تلهمها ولكنها لا تلهمها الا لكى تعينها بالالهام على أن تعمل عملها وتسلك سبيلها

ومؤلف كتاب القدر الانساني هو العالم البيولوجي الجليل ليكونت

دى نوى De Nouy الذى يقول ان استمرار النشوء والقول بالمصادفة مفارقة لا تعقل ، وهو يشبه مجارى النشوء فى الكون بجداول البحيرة التى تنصب من فوق الجبل الى مستقرها فى الأودية ، فتمر بالصخور والرمال وتلتقى أو تفترق وتحمل معها ألوانا من الرواسب والطوافى تخالف بينها آخر الأمر حتى كأنها ينابيع لم تصدر من أصل واحد ولم تجر على سنة واحدة ، والواقع أنها ليست كذلك وانما فى أصلها من بحيرة واحدة وفى حركتها خاضعة لقوة واحدة هى قوة الجاذبية

وعند « دى نوى » أن نظرية لامارك عن التوفيق بين البنية والبيئة ، ونظرية دارون عن الانتخاب الطبيعى ، ونظرية التحول الفجائى فى رأى نودين - دى فرى Nudin — De Vries كلها صالحة للمساهمة فى تفسير عوامل النشوء والتطور

قال : « ونعيد مرة أخرى أن التطور لن يكون مفهوما الا اذا سلمنا أنه خاضع لغاية ، وانما غاية بعيدة مقدورة »

ثم ختم بحوثه قائلا : « ان بعضهم قد يرى أننا لا نزال على مسافة بعيدة من اليوم الذى يصبح فيه الانسان وقد تطور التطور الذى يجعله أهلا لأن يشعر بضميره ، وألا يكون كل حقه فى المعاملة أن يعامل كما يعامل الطفل القاصر ، وربما صح هذا ولكنه - اذا صح - كان خليقا أن يصبح سببا للاتجاه بجهوده الى تلك الغاية : » وان الانسان المتطور قد بلغ حالة من نمو الضمير تيسر له أن يوسع أفق النظر وأن يلمح الدور العظيم الذى يضطلع به فى انجاز غايات التطور ، فليس الانسان كذلك الحيوان الأعشى الذى يصل فى أعماق البحر ولا يدرى أنه يبنى بعمله جزيرة مرجانية سوف تعمر بالكائنات التى هى أصلح منه وأعلى ، لأن الانسان يعمل وهو يعلم أنه رائد للسلالة المقبلة التى ستكون على وجهه من الوجوه وليدة سعيه وجهده . . . وعلى كل انسان أن يذكر أن القانون قد كان ، وسيبقى كما كان ، أن يناضل وأن النضال لم يهدأ لأنه تحول من الميدان المادى الى ميدان الروح . . . وعليه ألا ينسى أن كرامته باعتباره كائنا آدميا ، ينبغى أن تصدر من جهاده فى تحرير نفسه ، وأن ينقاد فى ذلك الجهاد لأعمق البواعث من قرارة وجدانه ، ولا ينسى أبدا أن الشرارة الالهية

كامنة في تلك القرار ، في قرارته دون غيره ، وانه هو حر قادر على أن يهملها وأن يقتلها ، قدرته على أن يقترب من الله وأن يعرب عن غيرته على العمل مع الله والعمل في سبيل الله »

ولقد آل تطور الانسان عند غير البيولوجيين الى تطور الانسان الصانع وقيام الصناعة الكبرى مقام الصناعات الصغيرة التي بدأت منذ مئات القرون ، فجعلت الانسان سيد الخليقة حين جعلته قادرا على العمل بيديه واختراع الآلة المصنوعة لانجاز عمله . وستفعل الصناعة الكبرى بأيدي المجاميع البشرية فعل الأداة الحجرية قبل مئات القرون بيد الانسان الأول ، اذ لم تكن له قدرة على الحيوان الأعجم غير تلك الاداة

ولا نخال أن أحدا عبر عن هذا الرأي تعبيرا أدنى الى الفهم من تعبير الاستاذ رسل هاريسون في كتابه : « ماذا يكون الانسان » . فانه ترك لغة « بابل » الحديثة : لغة البلبلة العلمية بين الفروض الصريحة والفروض المبهمة والمقابلات من هنا والمعارضات من هناك ، ووضع أمل التطور حيث ينبغي أن يوضع ان كان له موضع على الاطلاق ، وذلك هو موضعه من « الشخصية الانسانية » . . .

فلا مستقبل للانسان ان لم يكن مستقبلا لشخصيته الكاملة ، ولا تطور لهذه الشخصية ان لم تكن شخصية « ذات جوانب » ولم تكن جوانبها براء من النقص والخلل .

ان الشخصية الانسانية عاطفة ، وعقل ، وضمير ، وليست مجرد أعضاء ووظائف وخلايا وأعصاب . ومعنى تطور الانسان في الذهن أن تنم له هذه الشخصية بعد ما نبتت له بذورها مع أطواره الماضية ، وليس في الواقع ما يمنع « الشخصية الانسانية » أن تتحقق كما تحققت في الذهن ، فكرة قابلة للتمام . .

عود على بدء

بعد هذا الشوط في عرض المذاهب والآراء عن الانسان نسأل على ثقة من الجواب .

هل صحيح أن القرآن يلقي بالانسان غربا منقطعاً في القرن العشرين ؟

والجواب الذي لا تردد فيه ، ان القرآن - على النقيض من ذلك - يضع الإنسان في موضعه الذي يتطلبه ، فلا تسعده عقيدة أخرى أصح له وأصلح من عقيدة القرآن ، لأن عصر العلاقات العالمية لا يتطلب « مواطناً » أصبح وأصلح من الانسان الذي يؤمن بالأسرة الانسانية ، ويستنكر أباطيل العصبية ومفاخر العنصرية ليعترف بفضل واحد متفق عليه في كل أرض وبين كل عشيرة آدمية . وهو فضل الاحسان في العمل واجتناب الاساءة ، وليس لهذا العصر حق على بنيه أصح وأصلح من حق الشعور « بالمسؤولية » والنهوض بأمانة التكليف والاحتكام الى العقل في كل ما يسعه العقل ، ثم اطمئنان الضمير الى الخير فيما خفى عليه من شئون الغيب المجهول ، ولا بد في كل عصر حديث أو قديم من غيب مجهول .

ان القرآن يعطى القرن العشرين انسانه الذي ليس من انسان أصح منه وأصلح لزمانه ، فاذا آمن هذا الانسان بالله وبالنبوة فليس أصح ولا أصلح لعصر الوحدة الانسانية من الايمان برب واحد للعالمين ، وبنبوة تختتم النبوات - بعد الايمان بهذا الاله الواحد - لتسلمه الى عقله وضميره ، وتسأله عن اصلاح نفسه واصلاح دنياه بما يدعو اليه قوام الروح والجسد وطيب الحياة في الدنيا والآخرة

واذا كان هذا هو انسان القرآن بحرفه ومعناه ، فلا حاجة بالناقد المنصف الى حظ كبير من الترفع لينظر من عل الى أولئك المتعالمين المتوقرين أولئك الذين يزعمون أنهم قابلوا بين العقائد ، فخرجوا منها بمقطع الرأي

وقال لهم مقطع الرأى هذا ان القرآن نسخة مكررة - بل مشوهة - من هذه الديانة أو تلك الديانة ، وانه لم يحدث بعدها جديداً فى عالم الروح وعالم العقيدة ، وهو الذى هدى العالم فى أمر الاله وفى أمر النبوة وفى أمر الانسان الى هذا الفتح المبين . . . وما من بقية تبقى فى لباب العقيدة بعد هذا الجديد الدائم فى أمر الحقيقة الالهية وأمر الرسالة والهداية ، وأمر الكائن الحى المميز بين مخلوقات الله أجمعين : وهو هذا الانسان الذى تخاطبه الأديان . .

* * *

وقد رأينا مدى الموافقة بين عقائد الحكماء وآيات القرآن فى كثير مما عرضناه أو أشرنا اليه فيما تقدم . وقد نرى - أهم من ذلك - أن آيات القرآن تفسح للعقل الانسانى كل طريق من طرق البحث والتأمل ، فلا تصده عن طريق قط يتقرب منه معرفة نافعة توافق المعارف الشائعة أو تناقضها ، فما من طريق يسلكه الباحث الصادق هو طريق مغلق أمامه بحكم من أحكام القرآن ، الا أن يكون الطريق الذى لا يفتحه يوماً دين يدعو الى الله : وهو طريق الاحاد

ففيما تقدم من شروح حكماء الاسلام ما هو أعجب من فروض النشويين بعد القرن التاسع عشر عن الأحياء ودرجاتها من البهيمية الى البرد الى الانسان ، وللنشويين المحدثين آراء قد يستمدون تأييدها - لو شاءوا - من آيات قرآنية فسرّها بعضنا تفسيراً يتقبله القائلون بتنازع البقاء وبقاء الأصلح وتتابع الأطوار :

(ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض) .

(سورة البقرة)

* * *

(فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض) .

(سورة الرعد)

* * *

(وقد خلقكم أطوارا)

(سورة نوح)

فهل من الواجب على المؤمن بالقرآن أن يلتمس فيه تأييدا لأصحاب « النظريات » والفروض فى كل عصر يظهرون فيه ؟ ٠٠ نقول « كلا ولا ريب » لأنها قد تثبت كلها أو بعضها ، وقد يطرأ عليها النقض أو التعديل بين جيل وجيل ، ولكن القرآن يعمل عمل الدين الصالح اذا سمح للعقل أن يلتمس الحقيقة مع كل فرض من الفروض وترك له أن ينتهى بها الى نهاية شوطه مسئولاً عن نتيجة عمله وعما يفيد أو لا يفيد من جهوده ومحاولاته ، فليس من عمل الدين أن يتعقب هذه الفروض والنظريات فى معرض الجدل لتأييد تفسير أو خذلان تأويل ، وحسبه أنه يملئ للعقل فى عمله ولا يصدّه عن سبيله ، فهذا هو الوفاق المطلوب بين العقيدة والبحث وبين الإيمان والتفكير ٠٠

فاذا أخطأ من يقحم القرآن فى تأييد النظرية العلمية قبل ثبوتها ، فمثله فى الخطأ من يقحم القرآن فى تحريمها وهى بين الظن والرجحان ، وبين الأخذ والرد ، فى انتظار البرهان الحاسم من بينات العقل أو مشاهدات العيان ٠٠

وقد أخطأ هذا الخطأ جهلاء الدين والعلم الذين حرموا القول بدوران الأرض ، وهو أثبت من وجودهم على ظهرها ، وأخطأ مثلهم من حرموا القول بجراثيم الوباء وهى - فيما تبين بعد ذلك - احدى حقائق العيان

ومذهب التطور - خاصة فيما يتعلق بتحول الأنواع - لم يثبت - بالدليل القاطع ، لأن أنصاره لم يذكروا حتى الآن حيوانا واحدا تحول من نوع الى نوع بفعل الانتخاب الطبيعى ، أو بفعل تنازع البقاء وبقاء الأصحاء ، ولكن بطلان القول بهذا الانتخاب لم يثبت كذلك بالدليل القاطع على وجه من الوجوه ، وليس فى القرآن ما يوجب علينا أن نقول ببطلان الانتخاب الطبيعى ، لأن خلق الانسان من الطين لا ينفي التحول الى غير الطين ولا يوجب

علينا القول بكيفية الخلق من الطين على صورة من صور التركيب ، وانما
نعلم من القرآن أن الله بدأ خلق الانسان من طين . .

(ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين)

(سورة السجدة)

* * *

وفى آية أخرى : (من سلالة من طين) فلا اختلاف بين هذا وبين التحول
الذي يثبت - اذا ثبت - على وجه من الوجوه

ومذهب النشوء - مع سائر العلوم الحديثة - يقول لنا عن المستقبل
البعيد أضعاف ما قاله لنا عن الماضى البعيد : هل يتطور الانسان فى
المستقبل مع قوانين الوراثة العلمية أو لا يتطور ؟ وهل يعرف العلماء مسلكه
فى طريق التطور أو لا يعلمون ؟

من رجع الى القرآن ليعلم حكمه فى التطور المقبل وجده على العهد به
يملى للعقل ولا يصده عن طريق يرجى منه النفاذ الى علم مجهول . وفيما
تقدم كلام نقلناه عن أهل العلوم « المختصة » بتطور الأحياء وقوانين التوريث ،
نلتفت اليه فنعلم أن قوانين « الناسلات والصبغيات » فى الأرحام لم تنبئهم
بخبر يهذى الى مصير معلوم ، وأثبت ما عندهم من نبأ ان الغد كله مرهون
بميراث العقل والمشيمة والايمان . . .

فالذى يعرفه علماء الأجنة وقوانين الوراثة غير قليل بالنظر الى ما كان
معروفا من ذلك قبل مائة سنة ، ولكنهم - كثر أو قل - لا ينفعهم فى
تنظيم عمل الوراثة بالانتخاب أو اللقاح فى ظلمات الأرحام ، وانما ينفعهم
أن يحسنوا هداية « الانسانية » الى خير ما تستطيعه العقول المميّزة اذا صدقت
النية على حسب الخير ، وأجمعت العزم على استخلاص الذرية المختارة بالتعليم
والإرشاد ، وجعلت مسألة التقدم و « بقاء الأصلىح » مسألة فهم واعتقاد. أدنى
الى البلاغ من لقاح الأصلاب والأرحام

ونخال أن القرن العشرين لم يكن فى غنى عن هذه الهداية من علماء

النشوء ، ولكنها الهداية التي تعلمها من القرآن من تعلم (أن صلاح الإنسان فكر وأمانة وإيمان) و (أن الأرض يرثها عبادي الصالحون)

ونعيد لها كلمات موجزة في ختام هذه الصفحات عن الإنسان في عقيدة القرآن وفي عقائد الأقدمين والمحدثين :

ان القرن العشرين لم يضع الإنسان في موضع أكرم له وأصدق في وصفه من موضعه عند أهل القرآن بين خلأق الأرض والسماء وبين أمثاله من أبناء آدم وحواء : موضعه بين خلأق الأرض والسماء انه المخلوق المميز الذي يهتدى بالعقل فيما علم وبالإيمان فيما خفى عليه

وموضعه بين بنى آدم وحواء انهم اخوة من عشير واحدة ، أكرمها من كرم بما يعمل من حسن ويجتنب من سوء ، وأفضلها من له فضل بما كسبه وما اتقاه ، لا يدان بعمل غيره ولا ينجو من وزره بغير عمله :

(تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا

يعملون)

فهرس

صفحة

تمهيد ٦

الكتاب الأول : الانسان في القرآن

المخلوق المسئول	١٣
الكائن المكلف	٢٠
روح وجسد	٢٩
النفس	٣٤
الأمانة	٤١
التكليف والحرية	٤٨
أسرة واحدة	٥٥
آدم	٦٣

الكتاب الثاني : الانسان في مذاهب العلم والفكر

عمر الانسان	٦٩
الانسان ومذهب التطور	٧٩
التطور قبل مذهب التطور	٩٢
أثر مذهب النشوء في الغرب	١٠١

صفحة

١٠٨	• • • • •	مذهب التطور في الشرق العربي
١٣٣	• • • • •	الدين ومذهب دارون
١٣٨	• • • • •	سلسلة الخلق العظمى
١٤٦	• • • • •	الانسان في علم الحيوان وفي علوم الأجناس البشرية
١٥٦	• • • • •	الانسان في علوم النفس والأخلاق
١٦٤	• • • • •	مستقبل الانسان في علوم الأحياء
١٧٥	• • • • •	عود على بدء

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٧٣/١٨١٤

مطبعة دار العلوم

دار العلوم للطباعة
ت ٣١٧٤٨

